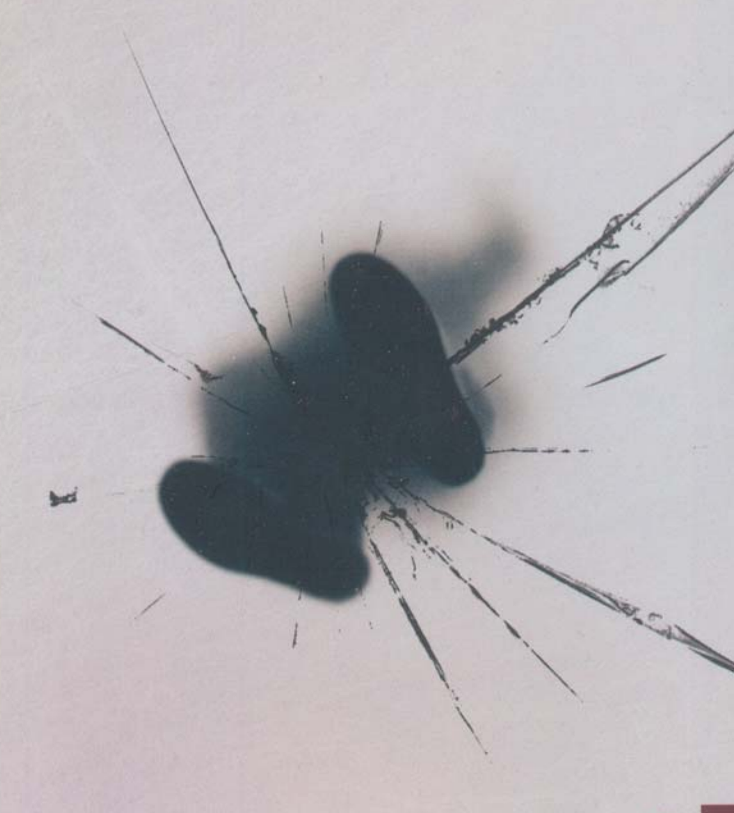
راي لوريغا

استسلام

7.9.2019

جائزة «ألفاغوارا» للرواية عام 2017



رواية

ترجمة: محمد الفولي

راي لوريغا

استسلام

جائزة «ألفاغوارا» للرواية عام 2017

ترجمة: محمد الفولي



2019

RAY LORIGA

RENDICIÓN

TRANSLATED BY: MOHAMMED EL FOULY

استسلام

استسلام / رواية

راي لوريغا

ترجمة: محمد الفولي

العنوان الأصلي للكتاب:

RENDICIÓN

Ray Loriga

Translated by: Mohammed El Fouly

© 2017, Ray Loriga

الطبعة الأولى - 2019

ISBN 978-1-988483-88-7

جميع الحقوق محفوظة



مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

Ottawa, ON. Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com

Ttanslation © Masaa Publishing & Distribution 2019

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

تصميم الغلاف: محمد النبهان

إهداء الترجمة

إلى محمد مهدي

وسارة إبراهيم

وأحمد محسن

وفاطمة جمال

لأن الطريق يتسع لكم جميعًا

«من يعيش أكثر من أربعين عامًا؟ سأخبركم من يعيشون أكثر من هذا العمر: الحمقى والمتبجحون.»

فيودور دوستويفسكي

«أما الرجال الآخرون، فعثرت عليهم في الاتجاه المعاكس.»

توماس برنهارد

«أكره الأرانب.»

إدي كوشران

1

ما من مبرر لتفاؤلنا، فلا مؤشرات قد تُشجعنا على التفكير في أن شيئًا قد يتحسن، لكن تفاؤلنا ينمو وحده -كالعشبة الخبيثة- بعد قُبلة، بعد محادثة، بعد نبيذ جيد، ذلك الذي لم يعد لدينا شيء منه تقريبًا. الاستسلام أمر مشابه. يولد سُم الهزيمة وينمو من رحم يوم سيئ وبوضوح يوم سيئ، بدافع من أتفه الأشياء، تلك الأشياء التي في أحوالٍ أفضلَ لم تكن لتلحق بنا أذى، إلا أنها تنجح بغتة في تصفيتنا إن تزامنت ضربتها الأخيرة مع آخر حدود قوانا. يُدمرنا فجأة ما لم نأخذه قط في الحسبان، كفِخاخ صياد ماهر قد التهينا بخديعتها دون الانتباه لحقيقتها. في المقابل، من قد ينكر أننا أيضًا نصطاد بالطريقة نفسها! عبر فخاخ وخدائع وتمويهات متناقضة، لكنها في الوقت ذاته شديدة الفاعلية.

إذا أمعن أحدهم النظر لحديقة هذا المنزل، سيدرك على الفور أنه قد عاش أوقاتًا أفضل، وبالمثل أن بركة السباحة الخاوية الآن لا تنشز عن عواء الطائرات التي باتت تقتص كل ليلة -ليس فقط من هذا البيت- بل من كل بيوت الوادي. أحاول طمأنتها حين ترقد للنوم، إلا أن معرفتي بأن شيئًا ما يتداعى؛ بأننا سنعجز عن تشييد شيء جديد في هذا المكان، مؤكدة؛ فكل قنبلة في هذه الحرب تفتح ثغرة سنعجز عن سدها. أعرف هذا، وهي أيضًا تعرفه، مهما حاولنا أن نتحامق في ساعة النوم، بحثًا عن هدوء لم نعد نجد إليه سبيلًا، عن زمن برائحة الماضي، لدرجة أننا في بعض الليالي نتذكر أنه كانت لدينا أحلام أفضل.

استمتعنا وقتها، في ذلك الزمن الآخر، بما ظننا أنه سيبقى معنا للأبد. لم تُخفف مياه البحيرة الباردة -كنا ندعوها البحيرة إلا أنها لم تكن سوى بركة كبيرة- من وطأة الحر فقط، بل وفرت لنا فرصة ممارسة كل أنواع الألعاب والمغامرات الآمنة. هاتان الكلمتان الأخيرتان: «مغامرات آمنة»، هما بلا شك نقيض ما لم نكن نعيه حينها.

كان لدينا زورق صغير بمجدافين اعتاد الصغيران أن يلعبا به لساعات لعبة القراصنة وساقته هي في أمسيات الصيف لنبحر نحن الاثنان -إن أمكن القول- في أفكارنا المتشابكة دون أن نتحدث كثيرًا، لكن مطمئنين.

وصلنا بالأمس خطاب من أوغوستو ابننا -الجندي خاصتنا- يحكي لنا فيه أنه حي منذ شهر، إلا أن هذا لا يؤكد أنه اليوم ليس ميتًا. ترفع الفرحة التي شعرنا مع قراءة الخطاب من خوفنا بعض الشيء، فمنذ انقطاع إشارات النبض بأمر من الحكومة المؤقتة عدنا لانتظار ساعي البريد، كما اعتاد أن يفعل أجدادنا، إذ انقطعت كل سبل التواصل باستثنائه. لدينا أنباء عن أوغوستو منذ شهر على الأقل، أما بابلو فلا نعرف عنه شيئًا منذ عام. حينما رحلا نحو الجبهة، منحتنا إشارات النبض اطلاعًا مستمرًا على خفقات قلبيهما. لطالما قالت إن الأمر تقريبًا كأنهما داخلها -كشعور الحمل- أما الآن فنحن مجبران على أن نحلم في صمت بأنهما على قيد الحياة، فالحرب عند الآباء ليست هي الحرب التي يتعارك فيها الرجال، بل حرب مختلفة. الانتظار هو واجبنا الوحيد، بينما تنتكس حديقتنا وتموت منهكة، لكن أنا وهي -على الجانب الآخر- نصحو يوميًا على أهبة الاستعداد، لأن حبنا يزداد قوة في مواجهة تلك الحرب.

يصعب تحديد كم أحببنا بعضنا فيما سبق. لا شك أن القبلات في زفافنا اكتست بصدق شديد، لكن هذا الصدق كان مرتبطًا بالجسد الذي كنا عليه

حينها، ومن البديهي أن الزمن حوّلنا لشيء آخر. تجولت هذا الصباح تحديدًا عبر ملكيتنا لأتحقق مجددًا من أن هذا المكان يشبه بالكاد ما كان عليه منزلنا. جفت البحيرة لأن أحدهم -ويفترض أنه العدو- قد شيد سدودًا على جداول الجبل، والآن باتت ضفاف البحيرة -الخضراء سابقًا كغابة- تحتضر.

لا تُغير الحرب شيئًا بذاتها، بل إنها فقط تُذكّر، عبر جلبتها، بأن كل شيء زائل.

على الرغم من الحرب -أو ربما بفضلها- نمضي قدمًا: صباح الخير، مساء الخير، يومًا تلو الآخر كأن شيئًا لم يحدث، قبلة تلو الأخرى، ضد كل ما هو عقلاني.. غليان المياه، الإبريق الموروث ذو الغطاء الصوفي المُطرز، أكياس الشاي الأخيرة.. القليل المُتبقي لنا يغلي كالماء ويصون نفسه بنفسه ويستمر. يموت ويحيا شيء بيننا، شيء لا اسم له وقررنا -بوجهة نظر سديدة- أن نتجاهله؛ لأنه لا مناص من احتضار الشغف إن لم يتجاهل الحظ العاثر، ونحن قد اتخذنا قراراتنا؛ وأن يكون أي منا وحيدًا لا يمت لها بصلة. الحب هو التخلي عن أي شيطان يوسوس لنا بأن غياب الحب أمر ممكن، وفي مواجهة الشياطين -لحسن الحظ- يتضاعف كل ما هو قريب.

يُمكنني الحديث عن يديها لأنني أعرفهما، لأنهما قريبتان، أما ما زاد بُعده فما من شيء قد يُقال عنه. يبكي الطفل في القبو. ليس ابننا، لكننا نحاول رعايته بأفضل طريقة ممكنة، فنحن نحب أن نعتني بشيء ما. نتفق في هذا على الأقل، رغم احتضار الحديقة المبكر. وصل الصغير صيفًا، منذ ما يزيد عن ستة أشهر. لا نعرف سنه وإن كنا نظن أن لديه تسع سنوات، فقد حظينا بابنين وأطوالهما المختلفة مُحددة بقلم فوق حائط غرفة الأطفال. عبر أطوال ابنينا، حسبنا عمر هذا الغريب، وإن كنا نعرف أن حساباتنا

ليست دقيقة، وأن هذا الذي نقيس طوله الآن ليس ابننا. كل ما حدث أنه وصل وحده وتولينا نحن رعايته.

كان جريحًا لدى وصوله، ما أعاننا كثيرًا على رعايته. لسنا من الأخيار. أعرف هذا، لكن هذه المسألة تجعلنا أقل قسوة، كما أن المنزل -من ناحية أخرى- به مساحة فائضة منذ رحيل ابنينا. إن كنا قد خبأناه في القبو، فهذا لأننا لم نقرر بعد ما الذي سنفعله معه. الحرب تنتزع أمورًا عدة، لكنها في المقابل تُقدم فرصًا. لم نعتد على امتلاك الفرص ولهذا نتأخر في قبول أو رفض العروض التي تطرأ أمامنا. إن من يكون دومًا على أهبة الاستعداد لا يعرف الخوف، أما نحن فنعرفه بالفعل؛ أو أنا على الأقل أعرفه وحدي، إذ لا أتجرأ على الحديث نيابة عنها، فالخوف أمر يخص كل مرء بمفرده. على أي حال، لا نظن أننا قد سرقنا الطفل، بل نفضل التفكير في أننا قد أويناه.

الطفل من جانبه لم يقل شيئًا. يُقلقنا صمته ويعزينا في الوقت ذاته، فنحن ننتظر كلمته الأولى ونخشاها.

فما العمل إن لم تكن كلمته الأولى «شكرًا»؟

ما الذي سنفعله معه حينها؟

أحيانًا، يبكي ليلًا بينما نمارس الحب، إلا أننا لا نتوقف، فقبلها أيضا نجحنا في ممارسته ضد بكاء ابنينا الحقيقيين. لسنا اثنين من المجانين، فهكذا يتكاثر البشر. إنه مجرى الاتصال الطبيعي، فالحياة لا تهدد الحياة، بل تحفزها.. أهديت بالأمس لعبة شطرنج لسجيننا؛ ندعوه هكذا لأننا لم نُسَمِّه، لكن لا مفتاح يُغلق بابه. قد يرحل إن ود، تمامًا كما وصل هنا لأنه ود، ومع ذلك فهو يمكث. أفترض أن الرغبة التي جلبته إلى هنا هي الرغبة نفسها التي تبقيه. في المقابل نُطعمه جيدًا رغم قلة ما لدينا. لا يحب الموز.

بتنا نعرف هذا. هو ليس قردًا. شهيته جيدة للغاية، تُصيبه البطاطس مع السجق بالجنون ويلعق أصابعه. إن رؤية طفل وهو يأكل تبعث على الرضا، حتى وإن لم يكن طفلك.

يبدو لنا شخصا جيدًا -هذا الطفل الملعون- وإن كنا نجهل من أين أتى. إذا سارت المسألة على ما يرام وكان مؤدبًا، ربما سننقله في النهاية لغرفة ابنينا الحقيقيين. هي تصر على أن الوقت قد حان بالفعل، لكن أظهر تحفظي، فسلوكه الحقيقي ما زال لم يتضح بعد، بالطريقة نفسها التي لم يتضح بها إن كان ابنانا الحقيقيان سينجوان من هذه الحرب ليعودا لاحتياج غرفتهما. في الحقيقة، لم يتضح أي شيء بعد، وهذا هو عزائي الوحيد. إذا كنت قد تعلمت شيئًا من مشاهدة حديقتنا تحتضر، فهو أنه لا الخير ولا الشر يتوقف لمراجعة حساباتنا أو لتقدير جهودنا، بل يقع كل منهما هكذا؛ بكل بساطة.

كانت هي أول من شاهد الطفل يصل سائرًا عبر الجبل ورأته يدخل الحديقة داميًا دون أن يشكو من شيء، هي من أدخلته للمنزل وهي من عالجت جروحه، هي من قدمت له ملابس ابنينا الصغيرة التي صانتها بعناية، هي من حممته وأعدت له العشاء وجهزت له الفراش في غرفة الألعاب بالقبو. اقترحتُ أن نتصل بالشرطة وقالت «لا»، إذ فضلت وجود طفل على الخضوع لتحقيق، فهي تعرف جيدًا ما تريده.

مر على هذا أكثر من ستة أشهر، لكن الصغير لا يزال صامتًا. أحب التفكير في أنه ما من شيء يزعجه. يحسن التصرف دومًا. حسنًا.. أحيانًا قد يلقي بغرض ما وهو يلعب، إلا أنه لم يكسر حتى الآن شيئًا ذا قيمة. لا يبدو مثل ابنينا، فهو نحيف ذو بشرة سمراء، أما ابنانا فكانا وما زالا -على الأقل حتى يتأكد اختفاؤهما- شقراوين صلبي العود. الأمر غريب، لكن أُلفة وجوده معنا باتت تزداد بمرور الوقت. يشاهد التلفاز معنا. نتجنب

الأفلام الحزينة والأغاني الحزينة؛ كل ما هو حزين في الحقيقة. يحب الأفلام الكوميدية ويضحك معها. هو طفل سعيد يأكل طعامه جيدًا والحقيقة أننا ليس لدينا شيء قد نشكو منه بخصوصه. تُمَسد هي شعره حينما يغفو على الأريكة دون أن يُمانعها، وبعدها أحمله بين ذراعيّ نحو الفراش وأغطيه. لا أتجرأ على طبع قبلة «ليلة سعيدة» فوق خده، كما كنت أفعل مع ابنينا، فهذا الصغير في نهاية المطاف -ومهما كان لطيفًا- ليس ابننا.

صباح اليوم، جاء شرطي المنطقة ليسأل عن أحوالنا. يبدو أن الحرب ستطول، وأن القنابل ستسقط أكثر قُربًا منا بمرور الوقت. يُقلقه ألا نقدر على المقاومة. كذبنا بكل تأكيد، أو ربما لا؛ ربما أن هذا الطفل يُعيد بناء قدرتنا القديمة على المقاومة. خزانة الأطعمة باتت شبه خاوية. يتبقى لنا قليل من الشاي، وأقل منه من القهوة. نشرب النبيذ في كؤوس أصغر حجمًا بمرور الوقت، أما الخضراوات فليس لدينا منها شيء على عكس اللوبياء، وبالمثل السجق والنقانق والبطاطس التي لدينا ما يكفينا منها لأسبوعين، أما معلبات معجون الطماطم فلشهر. الحليب لا يمثل مشكلة، إذ إن البقرتين الباقيتين في الدائرة نجوتا من الموت بمعجزة بالنظر إلى مدى جفاف المراعي. لا وجود للخبز منذ إلقاء القبض على الخباز. يقولون إنه كان يصيغ تقاريرَ في الخفاء، ويقدم معلومات تفصيلية عنا جميعًا للعدو، بل وإنه كان يُخفي وحدة نبض غير قانونية. يستحيل التيقن من صدق هذه الرواية، لكن الأمر مؤسف على أي حال، فقد كان في نهاية المطاف خبازًا جيدًا، ومنذ اندلاع الحرب باتت أضرار الشبهات أكثر من الرصاص نفسه.

نبهنا شرطي المنطقة إلى أن مناورة إجلاء ستُنفذ الأسبوع المقبل. نجهل ما سنفعله مع الصغير؛ سواء أثناء المناورة أو الإجلاء؛ هذا إن حدث في النهاية. لم نفكر قبل الحرب قط في الرحيل عن هذا المنزل، ولست في

حاجة لقول إننا أنا وهي كنا نُسَلِّم بأننا سنموت هنا، لكن الآن كل الأمور اختلفت ويجب أن نضع خططًا أخرى.

أمتع شيء هو مطاردة الطفل عقب الاستحمام، إذ يركض ملتفًا بالمنشفة وينزلق على الأرضية الخشبية، لكنه يواصل طريقه. أضحك أنا وهي بينما نجري خلفه ومنامته في يدينا، هي تمسك بالسروال وأنا بالقميص. مرت فترة طويلة منذ أن كنا سعيدين. أعتقد أنها تُحب أن تراني أركض كالمخبول بالطريقة نفسها التي أحب أن أراها سعيدة من جديد. شغلنا التلفاز بعدما ارتدى المنامة كما يجب، أخرجنا البطانية الصوفية، فالفحم قد نفد والجو بارد. بعدها تلاصقنا نحن الثلاثة لمشاهدة أفلام كوميدية. نحن جميعًا نحبها. بينما نضحك، ألبسناه الجوارب. لا يبث التلفاز سوى أعمال درامية أو كوميدية وأغنيات حزينة وموسيقى عسكرية وأخبار، أما أي شيء آخر فقد ألغوه منذ قرروا إيقاف شبكة النبض، أي منذ انقطاع شبكة (ريست) تمامًا. سابقًا، وبمجرد أن ينظر المرء إلى ظهر رسغه، كان يُمكنه -لو ود- أن يعرف كل ما يحدث في العالم، والأهم من كل هذا رؤية أحبائه وسماعهم عبر بث مباشر في التو واللحظة، بل ومتابعة الضجة الصماء لدقات قلوبهم، لكن منذ فترة انطفأ ضوؤها الأزرق الذي كان يغطي جلد الرسغ. الآن ليس لدينا سوى الضحك على الأعمال الكوميدية في التلفاز، حتى وإن كنا قد شاهدناها مائة مرة؛ فهي في نهاية المطاف أفضل من لا شيء، وعلى الأقل يتسلى بها الصغير.

في النهاية، حينما ينام الطفل فعلًا، نسقط أنا وهي متعانقين في استسلام، كما اعتدنا سابقًا. لم نرتكب شيئًا سيئًا، فالطفل قد وصل وحده. لم يجلبه أحد، ونود التفكير في أنه لا يخص أحدًا.

هي وأنا -من ناحية أخرى- مختلفان. هي سيدة ذات شأن، وأنا -قبل

زواجي منها- كنت من ضمن مُستخدميها. حياتها ليست حياتي. إن كل ما يتعايش معًا تحت سقف واحد يبقى في الحقيقة محتفظا بمُسماه الفعلي. هي كانت وستظل دومًا سيدة ذات شأن، وأنا قبل أن أصبح سيدًا، كنت خادمًا. هذا أمر يعرفه الجميع ولا معنى لمحاولة إخفائه. وُلدت كعامل باليومية لكن أصبحت رئيسًا للعمال، وبعدها هذبتني -ضد طبيعتي- لأصبح سيدًا وأبًا وزوجًا. فعلتها ببطء وعذوبة وحسم، كما تفعل كل شيء آخر.

لا يشك شرطي المنطقة فينا، فلدينا ابنان يقاتلان في هذه الحرب. يعاملنا باحترام، إلا أن مسؤوليته الكبيرة وسلطته الصغيرة تدفعانه للإلحاح في السؤال أكثر من اللازم. هي تعرف كيف تجيب على أسئلته. تقول «لا» كأنما لا يوجد بالفعل شيء تُخفيه، تمحو السؤال الثاني بإجابتها على ذلك الأول. إنها موهوبة في هذا. نام الطفل، أو تظاهر بالنوم، أثناء زيارة شرطي المنطقة. أقنَعته ولم يبد الصغير أي امتعاض، فهو يعرف جيدًا ما يحدث، وأيًا كان المكان الذي جاء منه، فهو لا يبدو مهووسًا بالعودة إليه. إن دفئنا وطعامنا القليلين يكفيانه وهو الأمر الذي -ولأي سبب قد أنكر! - يطمئننا. أبناء المرء الحقيقيون يطالبونه دومًا بالمزيد؛ إن هذا مجرد رأي شخصي، إذ كنت أراهما شديدي الشبه بأمهما فيختلط كبريائي مع مفهوم المسؤولية، وهكذا يتصاغر أمام ناظري كل شيء قدمته لهما. فارق السن بين ابنينا، أوغوستو وبابلو لا يصل لعامين، لذا كبرا متقاربين وانضما معًا للجيش، ومعًا أيضًا ذهبا للحرب. أن يكون لرجل لم يخض حربًا في حياته أبناء جنودًا يبدو غريبًا، لأنني أشعر أنني المسؤول عن حمايتهما بسلاحي وليس العكس، وهكذا أشعر أيضًا بأنه لا جدوى من وجودي. يُعينني الصغير السجين -والذي ليس سجينًا- على نسيان المسألة، بل وعلى أي شيء آخر تقريبًا. حينما يبتسم، أتذكر الزمن الذي اعتنيت فيه بابنيّ.

أحيانًا آخذ بندقية (ريمنغتون) القديمة خاصتي وأتجول ليلًا في المنزل. أعرف أنه تصرف سخيف، لكنه يُريحني. ربما سأُعلم الطفل الجديد الصيد، فما زال ثمة ثعلب على الأقل في الغابة. لم أتمكن من رؤيته، ورغم ذلك أعرف أنه موجود، إذ عثرت على علامات أسنانه على الأخشاب المجاورة.

أمدونا بتعليمات محددة للغاية حول مناورة الإجلاء: ما هي الأشياء التي سنأخذها، في أي صف سنقف، وثائق الهوية التي يجب أن نحملها. يُقلقنا الطفل وكيفية إخفائه وماهية أوراق اعتماده. تناقشنا في المسألة بالأمس. هي تظن أنه إذا حدث الإجلاء بالفعل وكان العدو -كما يقولون- على الأبواب، فلن يكونوا شديدي الدقة بسبب عامل الوقت، وأن أحدًا لن يُلح في طرح الأسئلة، لكن أنا لدي شكوكي، إذ أعرف أهالي الدائرة وحسد بعضهم لنا ولا أرغب في إتاحة فرصة لهم لإلحاق الأذى بنا. على جانب آخر، نتفق نحن الاثنان على أننا لا يمكننا تحت أي ظرف ترك الطفل وحيدًا تحت رحمة العدو أو الجوع؛ ما هو أسوأ، إذا تأخر العدو في الوصول.

ألغوا مناورة الإجلاء. على ما يبدو لا يوجد وقت لها. أبلغونا صباح اليوم بموعد الانتقال النهائي لأننا نخسر الحرب ومن مصلحتنا -أو هكذا قالوا لنا- أن نترك منازلنا. سيوفرون لنا حماية أفضل. كله من أجل مصلحتنا.. فهنا تحديدًا، وفقًا للشائعات، يتزايد عدد الجواسيس ويختبئ الواشون؛ أو يتزايد عدد الواشين ويختبئ الجواسيس. لم أفهم الأمر جيدًا في الحقيقة. المهم أن ما سيحدث هو مصادرة ممتلكاتنا، دون المساس بها، وربما في أفضل الأحوال قد نعود مرة أخرى لأراضينا عند انتهاء الحرب، عند زوال الشك.

يقولون إن المكان الجديد أكثر نظافة من هذا، مساحة مغلقة وشفافة حيث لا يُمكن لشيء سيئ أن يختبئ ويلحق بنا ضررًا. يدعون هذا المكان

المدينة الشفافة.. من هم مسؤولون عنا يفكرون بالنيابة عنا بينما يفكرون فينا. يتحدث شرطي المنطقة بعقلانية شديدة ويقول ما تأمره الحكومة بأن يقوله، فمن المفروض أن الحكومة تعرف جيدًا لماذا تأمر بأشياء ولماذا تفعلها.

أمامنا أسبوع للاستعداد للرحيل. جمعونا في دار البلدية وشرحوا لنا أن هذه المدينة الشفافة ليست منفى أو سجنًا، بل هي ملاذ. لا أعرف إن كان الكل قد فهم إذ سُمعت همهمات كثيرة هنا وهناك وأسئلة كانت من ناحية منطقية، ومن ناحية أخرى مجرد اعتراضات محضة. سأل صاحب مزرعة تربية الأسماك عن الوقت المفترض أن نقضيه في هذا الملاذ، وإن كنا هكذا سنصبح لاجئين، ليشرح لنا شرطي المنطقة أنه ليس ملاذًا مؤقتًا بل مدينة آمنة للتفكير في المستقبل. حينها سألت أخرى، وأظن أنها كانت محاسبة في الدائرة، إن كنا لن نعود أبدًا، ثم قال أحدهم -ولا أعرف من هو- من نهاية القاعة إن الرحيل غير مطروح بالمرة وإنهم لن يُحرّكوا أحدًا من مكانه. بدأ صبر الشرطي ينفد من كثرة الأسئلة، وحاول إغلاق الموضوع بقوله إن كل المعلومات اللازمة ستُسلم لنا حينما نصل. كانت هذه الإجابة تكفيني، أما بقية الأهالي فلا، لذا شرع كثيرون منهم يطرحون أسئلتهم بعلو الصوت ويحتجون، حتى أخرج شرطي المنطقة مسدسًا بساقية وأطلق رصاصة في الهواء ليطبق الجميع أفواههم. بعدما ساد الصمت بـ«العين الحمراء»، أخبرنا بأن أسئلتنا تقع خارج نطاق صلاحياته، إلا أن هواجسنا المنطقية من ناحية أخرى سيتم البت فيها من جانب سلطة عليا في الوقت المناسب.

لم نبس أنا وهي ببنت شفة. فنحن لدينا مشكلتنا الشخصية. لا نعرف كيف سنخفي طفلًا ليس لنا، لذا نحاول التفكير في حجة ما تبرر وجوده ويُمكن تصديقها، إذ إن ما ينمو عند توقف ضجيج القنابل، هي دمدمة

الشكوك. يلقون القبض يوميًا على جار ما. لا يقدمون أي تفسيرات أبدًا، إذ إن المذنبين يعلمون جيدًا ما اقترفته أيديهم، أما نحن -معشر الأبرياء- فمن الناجين. هناك وشاة يشون بوشاة آخرين. بالأمس اعتقلوا مدير مكتب البريد. يقولون إنه كان يقرأ الخطابات ويغلقها مجددًا قبل تسليمها. يقولون إن العدو لا ينام، إنه قد يكون في أي مكان وأي شخص. لدينا ابنان في الحرب وهذا يطمئننا في الوقت الحالي، إذ إن شجاعة ابنينا برهان على موقفنا وتكسبنا احترام الأهالي عن استحقاق. نحن أب وأم لمقاتلين، ولهذا لا يُمكن للقرية أن تشك في ولائنا؛ فما من أحد قد يخون أبناءه. الطفل هو المشكلة ونحن نعرف هذا. نُخفي طفلًا دون معرفة من أين أتى، ما قد يجعلنا نبدو كمذنبين. نتحدث ليلًا بصوت خفيض، مع إطفاء الإضاءة، كأن أحدهم يتجسس علينا. أعتقد أن كلينا يشعر بالخوف.

وافقتُ على أن ندَّعي كونه ابن أخيها. يبدو كأكثر الخيارات عقلانية. إن من ماتوا في هذه الحرب كثيرون وليس غريبًا أن نعتني بأبناء موتانا. ليس لدي إخوة، أما هي فلديها أخوان في العاصمة؛ ليسا في عمر التجنيد، لكن قد يكونا سقطا من ضمن ضحايا الغارات. لا حاجة لعُمر مُحدد أو شرط مُعين لكي تسقط قنبلة فوق رأسك فأي شخص يصلُح هدفًا لها. هي لا تعرف شيئًا عن أخويها منذ فترة، ربما يكونا قد ماتا بالفعل، إذ توقفت الهواتف عن العمل منذ أكثر من عام ويصل البريد متأخرًا (بعد أن يُقرأ على ما يبدو). مبدئيًا كل شيء مُمكن. لست في حاجة لقول إننا نبحث عن اسم للطفل وإننا نأمل أن يرد حينما نقوله، أو أن يلتفت لنا على الأقل. إذا ما التفت أحدهم عند سماع اسم، فهذا يعني أنه اسمه.

لم نتفق بخصوص الاسم، لكننا وصلنا إلى أنه كلما تعلمه بشكل أسرع لباتت الأمور أفضل. على هذا الصغير المسكين أن يتأقلم سريعًا. يُعجبني

اسم «خوليو»، إلا أنها تفضل «إدموندو»، والذي يبدو لي معقدًا وطويلًا ومُزيفًا. أعتقد أنني لو أصررت بالصورة الملائمة، فسيُدعى خوليو. كانت هي من اختارت اسمَيْ ابنينا الحقيقيين، لذا أظن أنه من العدل أن أختار أنا اسم هذا الغريب.

نحن الآن في أسبوع المغادرة. ليلًا، نتطلع للمنزل من الخارج، من أرض الحديقة الميتة، لنأخذ فكرة عن الأمر. مارسنا الجنس مرتين منذ أخبرونا بأننا سنضطر للمغادرة. لا نعرف إن كانت مواصلة ممارسة الجنس في المدينة الشفافة مُمكنة، فمن المعروف أن الشفافية تؤثر في الخصوصية.

صباح اليوم، وصلتنا شائعة وفي المساء أكدها لنا شرطي المنطقة: سنأخذ معنا للمدينة أشياء قليلة للغاية. الأثاث مرفوض، إذ لا توجد شاحنات منوطة بنقله وبالمثل الكتب، فهي متوفرة هناك. يُسمح بصورتين فقط لكل زوج وزوجة، ومثلهما لأب وأم كل منهما وللأبناء إن وجدوا، على أن تكون صورة واحدة فقط لكل ابن، ففي المدينة الشفافة يجب أن يبدأ كل شيء -تقريبًا- من جديد. لا حاجة لأدوات النظافة، لأنها مسؤولية الحكومة المؤقتة، ولا شيء قد يترك بُقعًا لكيلا نصعب عملها. يُسمح بجلب أداة لممارسة الرياضة: كرة أو مضرب أو رقعة شطرنج، والذي مهما هزأ بعضهم منه، يظل رياضة. تُمنع الأسلحة بكل أنواعها، فالمدينة ستحمينا، وبالمثل أحذية التزلج فلا وجود للجليد.

رداء سباحة واحد لكل شخص فهناك مغطس في المدينة، أما النظارات وعدسات العيون فمسموحة. كل الأدوية مرفوضة. ستتوفر لنا بمجرد وصولنا عقب إخضاعنا لمراجعة سريعة لكل أمراضنا. يقول شرطي المنطقة إننا هناك يمكننا أن نصبح سعداء كأي مكان آخر، وإننا سنكون قبل أي شيء -وفوق كل شيء- محميين. يساورها الشك وأخشى أنه يساورني أنا

الآخر، لكن ما باليد حيلة! فالمرء يجب أن يثق في الحكومة، حتى ولو كانت مؤقتة، إذ إن البديلين الآخرين إما الموت أو اللا سلطوية، وهما الأمران اللذان لا نودهما أنا وهي.

هذه المغامرة شبه الآمنة تكاد تغمرني بالسعادة. بينما نتجهز ننادي على الطفل بالاسمين «خوليو» و«إدموندو»، إلا أنه لا يلتفت لنا عند سماعه لأي منهما. يُفترض أن له اسمًا حقيقيًّا، لكننا ما زلنا نجهله لأنه لم ينطق شيئًا. تهتف «إدموندو» وأصرخ أنا «خوليو»، لكن الصغير لا يعيرنا اعتبارًا. استسلمت هي في النهاية بعدما أنهكها الأمر. سيُدعى خوليو انطلاقًا من هذه الساعة.

يتبقى وقت قليل على رحيلنا عن هنا. أبلغونا بضرورة إحراق المنزل، لكيلا يصبح مقرًّا للعدو، إلا أن الأرض ستظل باسمنا، وأنه بعد الحرب قد توجد مساعدات لإعادة الإعمار إذا قررت الحكومة الأمر واعتبرته مناسبًا. سأل أحدهم إن كان هذا يعني أننا قد نعود، وأجابه شرطي المنطقة بأن ما قاله لا يعني شيئًا، ثم سأل آخر إن كانوا سيعيدون شبكة (ريست) ووحدات النبض لنا، ليؤكد الشرطي بحسم أن نظام (ريست)، لن يعود أبدًا، إذ بات مُثبتًا أنه كان مصدرًا للفتنة، ومع السؤال التالي: هل سنغسل ملابسنا بأيدينا أم بالغسالة؟ كان صبر الرجل الطيب قد نفد -ومعه كل حق- من طرح التفسيرات، واقتصر رده على أن هذه المعلومة تحديدًا تتخطى وتتجاوز بمراحل معارفه وصلاحياته. الأمر المؤكد أن شرطي المنطقة لا يبدو أعلم منا بالنقطة التي نحن فيها أو تلك التي سنذهب إليها. يجب أن أعترف، وليس بغرض التباهي، أنني أدركت الأمر منذ فترة، ولهذا توقفت عن السؤال، لكن على أي حال لن آخذ معي قطع ملابس حميمية، فمن يدري إن كانوا سيغسلون كل شيء معا!

أعطونا صفيحتين من البنزين لإحراق المنزل. ليس هناك داعٍ لذكر أنني فكرت في تزويد خزان السيارة بالوقود لنغادر بمفردنا، إلّا أنهم بالأمس بالفعل كانوا قد صادروا منا سياراتنا، فقد درسوا هذه الاحتمالية قبلنا بوقت كبير. سنذهب للمدينة الشفافة في حافلات مُكيفة، بعد أن تعرضت خطوط السكك الحديدية للتخريب.

إن حرق منزلنا لن يكون سهلًا، فهو في النهاية منزلنا. تبدأ هي في البكاء بمجرد التفكير في الأمر وأحاول مواساتها؛ ليس لأنني لا أشعر بالأسى، بل لأنني قد اكتسبت مع الزمن عادة مواساتها. كما أن المنزل منزلها هي؛ وقبلها كان لعائلة زوجها الأول، لذا من الطبيعي أن تختلج روحها أكثر من الداخل. هي -مثل كل النساء- أقوى من كل الرجال، لكنها أحيانا تنكسر ولهذا أعانقها؛ أعانقها دون أن أدرك حتى أنني أعانقها. هذا هو ما فعلته طيلة حياتي وهذا هو ما فعله أبي مع أمي.

يبتسم خوليو كأن شيئًا لا يخصه. لديه أفضلية البراءة، حتى الآن على الأقل. إذا اكتشفوا يومًا ما أنه ليس ابنًا لنا فسيدرك.. حسنًا أظن أن هذا أمر لن يوده الرب. يتبقى لنا يومان على إحراق كل شيء ومغادرة المكان وباتت حقائبنا مرتبة بالفعل. كان نومنا فظيعًا، إلا أن هذه مسألة يتفهمها أي عاقل. إن المرء لا يرحل عن بيته كأن شيئًا لم يحدث، وبخلاف هذا كان القمر مكتملًا. تسلل ضوؤه الأبيض من بين الستائر ولم نجد مفرًا من تأمل ما كان لنا حتى وقت قريب بوضوح مُفرط مع الشروق، سقطنا في النهاية.. مستسلمين.

*****

أيقظنا بكاء الطفل. يبكي أحيانًا كرضيع، حينما تنتابه الكوابيس. لا نعرف ما الذي يحلم به لأنه ما يزال صامتًا، إلا أنه حينما يعانقها يهدأ. الأطفال -شأنهم كالحيوانات- يقلقون من التغيرات، لديه حدس بأننا سنغادر، إذ شاهد حقيبته وصفيحتي البنزين في الصالون، لكن لا أعلم إن كان يعرف ما يجب أن نفعله بهما.

تناول إفطاره جيدًا. قدمنا له كل ما لدينا تقريبًا، وإن كانت هي قد أخفت بعض المُعلبات بين ملابسنا، رغم تأكيدهم لنا وفرة الطعام هناك. لديها شكوكها وهي محقة. بعد الاستحمام، خرجنا للتنزه في ملكيتنا، حتى الغابة. لا نعرف متى قد نعود إلى هنا، لهذا كانت نزهة غريبة، ليس بالنسبة لخوليو، الذي كان يسير سعيدًا؛ يتسلق الفروع ويلاحق الذباب. لا وجود للسناجب منذ فترة. من الصعب معرفة ما الذي يُفكر به طفل، لكن من الواضح أنه لا يخشى النهار، ما ترعبه فقط هي أحلامه. أما نحن، فنخشى الأيام، الأشياء الحقيقية ومعرفة أن عودتنا ربما لن تتحقق، أو الجهل بما سنؤول إليه حينما سنعود، هذا إن جاء هذا اليوم. أخذت بندقيتي معي للغابة بالطبع، بل وأطلقت النار على أحد عصافير الدوري. لست معتادًا على إطلاق النار على العصافير، لكن لم يعد ثمة شيء في الغابة يُمكن التصويب عليه. لا أعرف متى سأتمكن من الصيد مجددًا، فالأسلحة ممنوعة في المدينة الشفافة. على أي حال، ليست لدي نية لإضرام النيران في بنادقي مع بقية ما يوجد في المنزل. قررت أن أدفنها داخل غمدها بينما تنام هي والطفل. لا أُفكر في إخبارهما بشيء، لا هما ولا شرطي المنطقة، ولا

أحد على الإطلاق، فمن حق الإنسان أن يفعل ما يحلو له ببنادقه، خاصة إن كان سيفتقد الكثير.

تاه خوليو منا في الغابة مرتين، ناديناه باسمه الجديد وعاد. لقد أصبت في شيء ما على الأقل. خوليو اسم جيد. جمعنا ثمار التوت وبعض الأزهار، إذ نرغب في أن يكون عشاؤنا الأخير مميزًا. إن المميز هو ما لا يكثر تكراره، أما الأكثر تميزًا فهو ذلك الشيء الذي -لسوء الحظ- يُسَلِّم المرء بأنه لن يتكرر مجددًا.

لا أعرف إن كنت قد أتيت على ذكر الأمر من قبل، لكنها طاهية مدهشة وصلصة الطماطم اللذيذة خاصتها تخفف من وطأة مرارة البطاطس القديمة. لديها مهارات كثيرة أخرى بخلاف الطبخ، فهي دومًا تساعدني على كبح بكائي وفي مرات أخرى تسليني بقصصها المُحالة. اختراع القصص؛ هذا أمر يُعجبني فيها ولم أتمكن قط من فعله، لذا ليس من الغريب الآن أن يبقى خوليو دوما بجانبها بعدما عرف اسمه، بل وحتى قبل أن يعرفه. ابننا فعلا الأمر نفسه، فمن يمهُر في حكاية القصص، يحظى دوما بصُحبة.

بعد الكثير من وضع هذا وإخراج ذاك، وعمليات الثني والكبس والإخفاء والاستغناء والتفكير وصرف النظر، جهزنا ثلاث حقائب احتوت على ما هو ضروري لحياتنا في المدينة الشفافة وتركناها عند الباب الرئيسي.

في هذا المنزل وُلد ابننا وأخذا أول رشفة لبن من صدر مرضعة ماتت قبل الحرب؛ بسبب الحرب. كانت أجنبية، من أرض الأعداء ونُفيت مع بداية القلاقل بعد وقت قليل من مقتل «العادلين الاثني عشر». قُتل الاثنا عشر بسبب إيمانهم، وهو أمر غريب إذا ما أُخذ في الاعتبار أن أحدًا هنا لم يؤمن كثيرًا بشيء، لكن الاثني عشر كانوا أول من قُتلوا بينما يصلون. قضت

قنبلة واحدة على حياتهم جميعًا، وحتى وإن لم يُعثر قط على المسؤول عن هذه المأساة، فقد أُلقي بالذنب على الأعداء بمجرد حدوثها. قالت الصحف حينها إن الحرب باتت وشيكة وبدأت الترحيلات. ماتت مرضعتنا في معسكر للاجئين بالقرب من الحدود. لم يتذكرها ابنانا حينما رحلا للحرب ولم نخبرهما بشيء. عندما اندلعت الحرب كان عمر أوغوستو تسعة أعوام وبابلو ثمانية. عاشا طيلة حياتهما في الحرب، وإن كنا قمنا بكل ما في وسعنا لكيلا يدركا وقوعها، لقد عرفا منذ ثلاث سنوات فقط، حينما غدا صوت القنابل مسموعًا عن قرب. قبلها كان يسهل إقناعهما بأن هذه الحرب في الحقيقة لم تكن موجودة، إذ إننا عشنا لوقت طويل بعيدًا عن المأساة، قبل أن تمتد نحو الجبل والوادي والقرية والغابة وكل ملكيتنا؛ قبل أن يغزو الخوف الدائرة بأكملها؛ قبل أن تصل أنباء سقوط العاصمة.. قبل هذا كله.

أنا وهي كنا ندرك أنه لا مناص من تجنيد ابنينا إن طالت الحرب، ولهذا كنا نشاهد الأخبار في الخفاء، آملين في هدنة لم تتحقق قط. الحرب ما زالت مستمرة منذ أكثر من عقد، أطول حرب شاهدنا في حياتنا.. كان وجه المرضعة عذبًا، تقطعه تلك التجاعيد التي ينحتها الهواء في مُحيا من يعملون منذ طفولتهم في العراء من شروق الشمس لمغربها، أما صدرها فكان شاحبًا وسخيًا. لم نعرف قط أي ضرر كانت لتلحقه بنا، لكن الحكومة كان لها رأي آخر، إن كان الإنسان يثق بسهولة في الآخرين، فعلى الحكومة أن تقلق في الوقت المناسب -بل وحتى قبل الوقت المناسب- من أي شيء قد يُؤذينا على المدى الطويل، فالمسؤولية القصوى تتطلب حيطة قصوى. هكذا يجب أن تسير الأمور -أو أن هذا هو ظني- لهذا لم أعارض حينما أخذوا المُرضعة، ولهذا لم تقل زوجتي شيئًا دفاعًا عنها، على الرغم من أنها اعتنت بابنينا بحب ولم تتمنَّ لنا -على حد فهمي- أي سوء.

رويدًا رويدًا، شرعوا يأخذون كل خدم المنزل وبالمثل المهاجرين العاملين في عناية الحديقة والأراضي، ثم التحق الولدان بالجيش، وفي النهاية لم يتبق سوانا، حتى جاء الصغير -خوليو- الذي لا نرغب في خسارته. أنظر إلى الأراضي ولا ألمح أثرًا للأشياء التي كنا نفعلها في الماضي؛ من حصاد المزروعات إلى فواكه في سلالها وأخشاب لقطعها أو عُشبة خبيثة لتُنزع من شجيرات الورد، إذ غدا كل شيء عُشبة متنامية بلا شكل أو أزهار. لم تعد تتراءى حيوانات ابن عرس ولا الجرذان السنجابية أو أي قارض ضار يختبئ بين القرميد أو حتى دبابير تضرب النوافذ. لم يعد هناك لصوص قد يستفزهم المرء ببندقيته، أو أجانب ليُشنقوا. لم يعُد يمر في هذه الأراضي سوى شرطي المنطقة، ويبدو أن مجرد وجوده يُبعد كل الوحوش، الصغير منها والكبير. لا يبقى مما كان لنا سوى ظل هذا البيت، والبيت نفسه. نسينا بمرور الوقت أسماء من ناموا أسفل سقفنا وفي الإسطبلات، ولم نعد نتذكر سوى اسمَيْ أوغوستو وبابلو، ابنينا المُجندين. تلقينا خطابات من أوغوستو على مدى فترات متباعدة ومن بابلو لم يصل لنا شيء قط، في أي يوم قد يتعرضا للقتل، إن لم يكن هذا قد حدث بالفعل. تكرر هي هذه العبارة دومًا: «في أي يوم قد يتعرضا للقتل». تكررها باستمرار وأقول لها: لا، لا يا امرأة، إلا أنها لا تكف عن تكرارها كأنها لا تسمعني. حينما تصر على شيء، فلا أحد قادر على إيقافها، هي عنيدة كضرس يأبى أن ينخلع من جذوره. إذا ودت أن تخبز حلوى ما، تفعلها، حتى إن لم يكن لدينا سُكر، ثم تغضب بعدها إن لم أتناولها. بخلاف هذا، فهي امرأة طيبة وماهرة ونظيفة. رغم نشأتها لتغدو سيدة ذات شأن، إلا أنها لم تتردد قط في أن تُصبح أول من يقصم ظهره إن استدعت الظروف. حينما أخذو منا الفرَسين، كانت تلف وتدور حول البئر، دافعة العصا بيديها حتى تدمي، لكنها لم تكن تتوقف إلا حين تحصل على مياه تكفينا طوال اليوم. قطعوا عنا المياه في بداية الحرب، أو ربما قبلها،

حينما كانت الحرب مُجرد كلمة تُقال وتُكرر كأنها لا يوجد شيء دونها.

حذرَنا شرطي المنطقة الأول من انقطاع المياه وملأنا الأحواض والجِرار كأنها ستدوم معنا أبد الدهر، ثم عشنا على ما تتركه لنا الأمطار في البئر وصلينا لكيلا يعود الجفاف، وحينما عاد اشترينا الماء من شاحنات الصهريج بأربع قطع مجوهرات قديمة كانت ما تزال تحتفظ بها. لم تتبق لدينا أي مجوهرات، ولا أي شيء تقريبًا يُمكن الدفع به. القليل الذي لدينا يكفي لشراء البطاطس واللبن، أما الأرض فمن قلة حرثها بدأت تفقد خصوبتها وقريبًا لن يبقى شيء في الوادي يصلح أن يضعه المرء في فمه، لهذا ليس سيئًا للغاية أن يخرجونا من هنا، أن يحرقوا منزلنا، أو أن يجعلونا نحرقه، لأننا بكل تأكيد سنكون في وضعية أفضل تحت رعاية الحكومة عن رعايتنا لأنفسنا، مع الأخذ في الاعتبار أن رعايتنا لأنفسنا لم تعد ممكنة في أرض بائرة. إن الرجل الذي لا يمد ذويه بحاجاتهم يتصاغر حتى يصبح هو والعدم سواء، وقبل أن يحدث هذا، على المرء أن يتقبل بدرجة كبيرة ما تقرره حكومته.

سيبلغوننا لاحقًا في المدينة الجديدة كيف سيكسب كل منا قوت يومه، وعلى ما يبدو -وفقًا لما يقوله شرطي المنطقة- فقد فكروا في مهام ووظائف للجميع بالتماشي مع أهليتهم لها، لكيلا يتحامق أو يتبالد أحدهم ويبقى دون عمل، فلا شيء يشتت الإنسان ويُصغر من منفعته أكثر من الكسل. بمجرد وصولنا سيحصل الجميع على وظائف؛ لن تكون شديدة الأهمية في البداية، إلا أنها كافية ليبقى كلٌّ في شأنه دون إزعاج مسار كل ما هو عمومي ومشترك وضروري؛ فهناك يُحظر -وفقًا لحكايتهم- الشغب والفوضى؛ الأمر الذي أعترف بأنه يُطمئنني، فكل ما هو جيد يُبنى على أساس النظام؛ أما ما هو دونه فيكون مرتعًا قذرًا للوقحين والتنابلة وصغار اللصوص، وهؤلاء إن أهملتهم يخرج اثنان منهم -بمجرد النظر- من أصل كل عشرة مواطنين.

إن كان هناك شيء قد أوضحوه لنا عما سنجده في المدينة الجديدة، فهو أنهم لن يسمحوا لنا بأي تجاوزات أو شغب، إذ سيكون هناك من يراقب دومًا سير الأمور في نصابها الصحيح، فبين جموع البشر، يغدو المحتالون شظايا؛ شظايا تنغرس في الأعماق وتتراكم حتى تُشعل حريقًا. حينما كان العمل يتعلق بالأرض، اعتنى كل شخص بأرضه، لكن إن كنا كلنا سنعيش معًا وعُزَّل، فمن الأفضل أن يراقبوننا جميعًا على أن نضطر جميعًا لدفع ثمن ما قد يقترفه بعضهم. هي تقول إنها لا تتخيل كيف ستكون الحياة هناك وأقول لها إن هذا لا يهم، فليس من الملائم تخيل ما لا مفر من رؤيته قريبًا. قصصنا على الصغير خوليو مسألة الرحيل ولم يلق بالًا؛ أو أنه لم يفهم الأمر برمته، فهو ما يزال مبتسما كأن المسألة لا تعنيه. لم يمر عليه وقت طويل في هذا المنزل لكي يتمسك به، أما الأراضي فلم يبصرها حين كانت بديعة وواسعة النِعَم، لهذا ما من أسى لديه ليختبره. لم يلعب بالمثل مع الجياد أو يصطاد في الغابة والحقيقة أنه لم يعرف شيئًا بالكاد من خير هذا المنزل أو خيرنا، بصورة لن تجعل لديه شيئًا ليقارنه بما هو آت ولن يكون ظل ماضينا قائمًا في مستقبله. لن يخسر أصدقاء مع رحيلنا، إذ إن المزارع المجاورة لم يعد يتبقى أطفال فيها وبالمثل في قريتنا، فمن كانوا موجودين أخذهم الجوع والحمى، أما الصبية الأكبر ففي الحرب، أما الأكبر سنًا من كل هؤلاء فلم يتبق منهم سوى عجائز القرية وغجر الوادي و«أصحاب الماء» ساكني الجبل على الجانب الآخر من الوادي. «أصحاب الماء» هم من يبيعونه لنا عبر شاحنات الصهريج في فترات الجفاف، إلا أنهم قوم لهم أهميتهم، إذ لا يظهرون سوى في الأعياد وقلما يتبادل أحدهم كلمة معهم من فرط الاحترام -أو ربما الخوف- فالكل يخشاهم. أنا نفسي لم أتبادل طيلة تلك الفترة عبارات مع «أصحاب الماء» سوى صباح الخير ومساء الخير، أما هي فصادقت المرأة -أو «صاحبة الماء» كما يدعونها، إذ إن الماء في الحقيقة لها بعدما ورثته من أبيها -بل إنها تناولت

الشاي معها ذات مرة في القصر-، لكن زوجها لم ترق له هذه الأُلفة مع الجيران، وبعدها لم تطأ قدم زوجتي قط فوق أرضية الصالونات الفارهة لـ«أصحاب الماء». إذا كان منزلنا جيدًا، فمنزلهم قصر كما يأمر الرب، بِخَدَم كُثر بدوا كجيش إن تأهبوا للصيد. سألتني إن كانوا هم أيضًا سيضطرون لإحراق القصر، وقلت لها إنني لا أظن هذا لأن من هم ذو شأن سيحصلون بلا شك على معاملة مختلفة رغم الحرب والإجلاء؛ ثمة أمر أكبر من هذا، إذ سُمع في القرية وبين رسائل البريد أنهم ربما لن يُنقلوا من الأساس، وأنهم إن فعلوها، فلن تكون مع مجموعتنا، بل في أخرى ستذهب نحو مكان آخر أفترض أنه سيكون أفضل، نظرًا لأهميتهم، لكن من يدري! ففي القرية تتناثر أحاديث كثيرة دون معرفة مسبقة، بل تُقال أمور غريبة دومًا عن الأغنياء بدافع الحسد فقط. على أي حال، لا معنى لافتراض المؤامرات، فعاجلًا سنخرج من شكوكنا وحينما نرى بعضنا في الصفوف سنعرف من سيأتي معنا ومن لن يأتي.

حرق المنزل مهمتي أنا، إذ إنني لا أرغب في أن تُلحق بنفسها أذى ولو مقابل كل كنوز الدنيا. سأفعلها مثلما أمرونا؛ باستخدام صفيحتي البنزين اللتين وفروهما لنا. لا أفهم الداعي من إهدار البنزين في وقت الحاجة، ففي نهاية المطاف قد يمكنني إحراقه ببعض الكحول والورق المقوى والصوف، إلا أن الأوامر تأتي على أوراق مختومة، ومن الأفضل الامتثال لها دون تململ أو تفكير، فالنوايا الذاتية نفسها قد توقظ ما هو أكبر من الشبهات، وبالأخص في أوقات الحرب، في ظل وجود أعداء مستعدين لاستغلال أي فرصة لإلحاق الأذى بالروح المعنوية.

إن مسألة العناية الفائقة بها ليست جديدة. فقد اعتنيت بها قدر استطاعتي حينما كنت رئيسًا لعمال هذه الأرض وبعدها عندما تَرَمَّلت

وجعلتني صاحبها. قِيلَت في القرية أمور فظيعة عن حبنا، لكن ليس صحيحًا أنني تجرأت على النظر في عينيها، ولم يحدث هذا مُطلقًا في حياة السيد الراحل، إذ إن حبها هو من جعلني صاحبًا للأرض وليس طموحي. هي من انتقتني لأحمل اسم المنزل، هي من علمتني، هي من أهلتني بصبر، حتى لم أعد أغدو ما كنت وصرت ما أنا عليه. لم تقص قط على ابنينا شيئًا من الماضي، لم تخبرهما أنني كنت عاملًا في هذه الأرض قبل أن أدفع بنفسي فيها أجر من يعملون باليومية. أدركا المسألة من المدرسة. لم نعرف قط إن كانا قد تأذيا منها، فقد ربيناهما على أن يشبا قويين، صامتين وصلبي العود، لهذا هما جنديان جيدان، وكإثبات فأحدهما قد حصل على ثلاثة أوسمة والثاني على وسامين؛ أوسمة شجاعة وليست لأداء المصالح وتصريف الخدمات، أوسمة عسكرية. عندما نفكر في أنهما قد قُتلا -ونحن نفكر في هذا كثيرًا- لا ينمحي الألم بتخيلهما مع الأوسمة، لكن حقًّا ما ألاحظه هو كيف يجتذبنا ثوب العِزة، خيوط بدلة المناسبات التي يرتديها كل أب حينما ينظر لأبنائه من بعيد، مهما كنا نرغب في رؤيتهما حيين وبصحة وبالقرب منا مجددًا.

حينما أحرق المنزل، لا يجب أن تراه، لهذا قلت لها أن تنتظر في محطة الحافلات، والتي -كما أخبرونا- ستجتمع فيها النساء بينما نُدمر نحن الرجال كل شيء لكيلا يستغله الأعداء. هكذا نصت الورقة المختومة التي سلمها لنا شرطي المنطقة وهكذا سننفذ الأمر، فمن غير الملائم أن يتحامق أو يتأخر المرء عما تقوله حكومته. إن ما يؤلم كل فرد هو شأن يخصه والبكاء كالأطفال لا نفع منه حينما تكتسب الحركة والشجاعة والتطبيقات الاستراتيجية طابعًا مُلحًّا. أخذ شرطي المنطقة وقته ليشرح لنا كل شيء لتجنب الأخطاء والالتباسات، وأخبرنا بصوت خفيض -كمن يتخطى ولو لمرة التزاماته بدافع الصداقة والثقة- أن الطاعة والاستعداد الجيد لكل فرد لهما أهمية

قصوى في الخطة التي رسمتها الحكومة، فنحن لسنا صغارًا، مهما تحركنا في صفوف، والنصر النهائي سيعتمد بصورة كبيرة على جهودنا وإصرارنا. قالها لنا هكذا، وإن كان وقع ما قاله يبدو كدعاية تقليدية، فهو ليس ذنبه -أي شرطي المنطقة- بل ذنب من علّموه أن يقول ما قاله. قبل شرطي المنطقة هذا، كان هناك آخر يتحدث بالطريقة نفسها، إلا أنهم قتلوه بدافع الشك، أي أن كينونة شرطي المنطقة وتكرار تعليمات الحكومة بحذافيرها لا يضمن شيئًا؛ فهنا بمجرد أن تلاحقك الشائعات يصبح قدرك محتومًا. هي من علمني ألا أثق فيما يقولونه، لأنني قبلها كنت رجلًا يفهم الأفعال وليس الكلام؛ هي بالمثل من علمني الطاعة وإن كان هناك شك، وأنه ليس من الضروري أن يعيق شيء ذلك الآخر؛ فالطاعة -وفقا لما شرحته لي أو وفقًا لما فهمته منها- غرضها الملائمة أما الشك، فالفكر، وإن كان أحدهما ينقذ الجسد فإن الآخر ينقذ الروح. لهذا أقنعتني بالمضي قدمًا في خدعتنا الصغيرة وعدم التفوه بشيء لأحد عن صغيرنا خوليو والعمل بحماس على الكذبة التي اختلقناها؛ تلك التي تدعوها قصتنا، فإن كان اليقين شيئًا لا يُمكن استيعابه، فما بالنا بالخيال. هي تقول إن القصة هي كل ما يهم وليس الواقع المسيطر عليها، ولأنها أكثر ذكاء مني أكترث لما تقوله في كل شيء، ومعها لا أشك أو أطيع، بل أتصرف بقناعة حرة. ترك الطفل لنصيبه لا يبدو لأي منا فعلًا يرضي الرب، فنحن نعرف أن رعاية الصغار المعوزين -سواء جاؤوا باسم أو بدونه- عدل وخير أمام عينيه ولن تجلب لقلبينا أي شر.

غادرت حينما حل المساء نحو القرية. الطريق يستغرق نحو ساعتين، إلا أنها قوية لدرجة أن ملاحقة خطاها تتطلب جهدًا. تركتني هنا مع الطفل، لأنني طلبت وجوده، إذ ظننت أن الحريق في الليل سيبدو مذهلًا، وما من طفل لا يحب النيران. ساعدني الصغير مع صفيحتي البنزين. رششنا كل

غرفة ومن بعدها الأساسات. لم أتركه يشعل القداحة طبعًا لأنني لا أود أن ينشأ كمهووس بإضرام الحرائق أو أن يتسلى أكثر من اللازم بأمر -مهما كان ملائمًا لاستراتيجية الحكومة المؤقتة- يعني نهاية كل ما كنا عليه، وكل ما كان لدينا.

مع رؤية المنزل يشتعل، أخذت الدهشة مكانًا ظننت أن الأسى سيحتله، إذ إنه توهج سريعًا كأنما بُني بأعواد صغيرة وليس خشبًا غليظًا، وفجأة بينما أفرك أنا والطفل أعيننا من فرط الحرارة والشرر، لم يعد موجودًا.

أفترض أن كل الأشياء تتلاشى هكذا.

*****

كانت ثمة جلبة فظيعة في محطة الحافلات. استغرقنا بعض الوقت للعثور عليها بين هذا الجمع الكبير، بعدما وصلنا أنا والصغير تائهين بين وجوه عِدة قد اكتست بحزن شديد. يا للسعادة التي غمرت ثلاثتنا حينما عدنا معًا، كأننا لم نر بعضنا منذ مدة، وإن كان كل ما مر علينا هي بضع ساعات! بسط الليل سلطانه ولم تصل الحافلات، إلا أن شرطي المنطقة قال إن أول شيء واجب هو ضبط الصفوف ومراجعة الأسماء وفحص الحقائب. خرج من الإحصاء الأول ثلاثون شخصًا، لكنهم جميعًا من الغجر وأخذوهم فورًا، لكن ليس دون ضجة؛ فالغجر أناس مزعجون ومن أصغر شيء يتعرضون له يبكون ويصرخون كأنما تُسلخ جلودهم. كانت الأوامر واضحة وأعلنوها كتابيًا وبعلو الصوت: الغجر لن يأتوا للمدينة الشفافة مع بقيتنا، لهذا لم يكن ثمة مبرر لمثل هذا الصخب. أخرجوهم في النهاية من الصفوف ورغم زوبعتهم لم يجدوا بُدًّا من عودتهم للوادي. لم يربطني شيء قط بالغجر، سواء كان خيرًا أو شرًا؛ اعتدت أن أُعلق بندقيتي فوق كتفي إن رأيتهم بالقرب من الإسطبلات أو البستان أو الدجاج وكل عام وأنتم بخير، إذ إنه لا يوجد غجري في هذا العالم لا يحترم بندقية. بعدما رحلوا، بدأ الإحصاء مجددًا ومع الغربلة الثانية لم يخرج سوى فردين إضافيين، ليس لأنهما غجريان بل لكونهما أجنبيين. أبعدوهما بحذر وأخذوا منهما حقائبهما. لم يقولوا ما الذي سيفعلونه معهما، لكن يُفترض أنهم سيُرسلونهما مباشرة إلى معسكر الأسرى. على ما يبدو فإن أحدًا لم يعرفهما، وإن كان ثمة أحد يعرفهما فقد تصنع العكس. أنا لم أضطر للكذب، لأنني لم أرهما قط في

حياتي. كانا زوجين شابين وجَليٌّ أنهما قد فرا من التجنيد؛ أو على الأقل هو، والذي إن كان من هنا وبمثل هذا العمر -وهذه العافية- لبات جنديًّا في الحرب مثل ابنينا. لم يقل أحد شيئًا عن خوليو حتى الآن. من الواضح أن الظن بكونه فردًا من العائلة أمر مُسلم به؛ نحن من هنا ولنا وضعنا نوعًا ما ولدينا ابنان إن لم يكونا بطلين، فهما على أقل تقدير جنديان. أُصَلي لكي تمر كل الأمور على خير وأبتلع ريقي. لم يُخرجوا أحدًا من الصف بعدها، لكنهم أخذوا من بعضهم أغراضًا كثيرة، فرغم أن مستندات الحكومة نصت على السماح فقط بحقيبة صغيرة لكل فرد، إلا أن بعضهم بدا وكأنه يرغب في أخذ كل شيء معه باستثناء فراش نومه الكبير وساعة الحائط، لدرجة أنني رأيتهم يخرجون آلة «تشيلو» من بين الحقائب. يجب أن يكون المرء مخبولًا ليرغب في وضع تشيلو في حافلة إجلاء، فنحن في النهاية لن نذهب في جولة موسيقية.

حينما حل دورنا، أظهرنا الأوراق. شرطي المنطقة يعرفنا جيدًا ولم تكن هناك أي مشكلة أخرى باستثناء الطفل، وهو أمر كنا نعرفه. هنا تركتها هي لتتولى زمام الحديث؛ وكسيدة ذات شأن من قمة رأسها لأخمص قدميها شرحت له كل شيء دون أن يرتعش صوتها قط؛ حدثته من علٍ شديد لدرجة أن الشرطي خفض رأسه ومَسَّد شعر ابن أخيها المُزيف بود وأسى حينما أخبرته بأنه تيتم مؤخرًا ومن شدة تأثره بالألم قد فقد القدرة على النطق تقريبًا. تصرف الصغير بشكل رائع واتخذ سيماء الحزن، لدرجة أنه لو كان ممثلًا لحصل على جائزة عن دوره، أما أنا فظلت يداي تتعرقان حتى طبع شرطي المنطقة الأوراق بالختم الرسمي وواصل عمله مع التالين لنا في الصف. بينما كان يتحدث معنا بخصوص الصغير، سُمعت همسات من هنا وهناك، لكن الناس لا تعرفنا جيدًا لتعلم شيئًا عما يخصنا. كنا بالكاد ننزل

للقرية في الأعياد، أما المدينة فكنت أذهب لها بالسيارة لتسوق المشتريات الكبرى. عرفت دومًا أنهم يكنون لنا حسدًا وهو أمر متوقع، لأننا بعد مزرعة «أصحاب الماء»، كان لدينا أكبر منزل في الدائرة.

بالمناسبة -كما سبق وقلت لها- لم يصل «أصحاب الماء» للصفوف المتراصة في المحطة. سعدت بكوني على حق، إلا أنني لم أخبرها، ولحسن الحظ أنني لم أتباه أمامها بالمسألة لأنني كنت لأبدو بعدها كأحمق أصيل؛ فبعدما انتهى إحصاء الصف بأكمله، وصل «صاحبا الماء» الاثنان في مركبة يقودها سائق خصوصي. لم تكن سيارتهما، بل واحدة تخص الحكومة بلوحة رسمية وعلم مُعلق فوق الهوائي. اندهشت من رؤيتهما، لدرجة أنني جذبتها من كم قميصها، إذ إن الشرطي كان قد طلب منا -أو بالأصح طالبنا- بالتزام الصمت. هدأتني، بإمساكي من يدي، كأنها تُفهمني أن شيئًا لم يعد قادرًا على إدهاشها.

لم يترجل «صاحبا الماء» من السيارة حتى بات كل شيء مُجهزًا، بل وإنهما لم يُظهرا أي مستندات لشرطي المنطقة. حينما وصلت الحافلات الثلاثة أخيرًا كانا أول من يصعد وفي صدارة الصف الأول -صفنا- بينما انتظرت بقيتنا بنفاد صبر. بمجرد أن باتا في الداخل، قالوا لبقيتنا أن نصعد وفقا لترتيبنا في الصف. عندما صعدنا في النهاية، لا أعرف لم شعرت بالاطمئنان لرؤيتهما هناك. ودون أن نحيي أحدًا جلسنا بأسرع طريقة ممكنة في الوراء، قرب المقاعد الخلفية. راجع شرطي المنطقة الحافلات الثلاثة بالترتيب وأحصانا جميعًا مجددًا، ثم هنأنا على تنفيذ الإجراءات بانضباط وشجعنا على الاسترخاء قليلًا والدردشة إن رغبنا، لأن الرحلة طويلة. أجلسنا الصغير بيننا، ليشغل ثلاثتنا مقعدين فقط، أما الحقائب فوضعناها في الخزانة العلوية. كانت حقائب صغيرة تمامًا كما طلبوا منا. قَبّلت هي الطفل

في جبهته حينما انطلقت الحافلة أما أنا فكان نصيبي قُبلة على شفتيّ، ورغم أنهم قد أذنوا لنا بالحديث، لم يخطر لي شيء قد أقوله.

أخذنا الطريق نحو المدينة ولدى نزول الجبل أبصرت دخان منزلنا المحترق، لكن على الجانب الآخر من الغابة لم أر شيئًا. لم يحرقوا قصر «صاحبي الماء». كنت مُحقًّا في هذا على الأقل. بعد قليل من اجتيازنا للوادي، انعطفنا وتركنا الطريق الرئيسي بجوارنا وأخذنا طريق الدائرة القديم. خلفنا البحيرة وراءنا ثم صعدنا نحو الميناء وهبطنا حتى عبرنا الحد الأخير للإدارة المجاورة. شاهدنا القرية التالية خاوية بينما نجتازها. لقد أخلوها طبعًا قبل قريتنا، وهكذا صرنا نعثر على كل القرى خاوية وشعرت أنها بلا سكان منذ فترة قليلة، إذ إن ثمة أغراضًا ما زالت في الشارع: قطع أثاث وملابس وحقائب مفتوحة بل وإضاءة في بعض النوافذ، ربما بدافع النسيان، إذ إن أحدًا لم يبق هناك؛ وهكذا مرت القرى كأنها أطياف بلا اسم حتى ابتعدنا كثيرًا ولم أعد أتعرف على شيء. كان الصغير نائمًا وظلت دردشة الحافلة تتداعى حتى صمت الجميع وبات كل ما يُسمع هو شخيرهم، لكنها كانت مستيقظة وتنظر شاردة الفكر عبر النافذة. كان يصعب معرفة ما الذي تفكر فيه وحينما سألتها، قالت لي إنها لا تفكر في شيء، سوى كيف ستكون المدينة الشفافة وهل هي من زجاج أم شيء آخر، وإن كان المكان سيجعلنا جميعًا بخير، أو إن كانت هناك مدرسة أو على الأقل صغار آخرون. لم تكن مسألة المدرسة مهمة كثيرًا، إذ إنها قادرة على تعليم خوليو ما يجب أن يعرفه. كان معها كل الحق، فإن كنت قبل أن تقبلني زوجًا لها وتنصبني على أملاكها أعرف شيئًا عن الحسابات ووثائق التسليم، ففي المقابل لم تكن لي دراية بالكمبيالات أو -بصراحة- بأي شيء آخر في العالم. عرفت فقط العمل بيديّ والقراءة والكتابة نوعًا ما وأمورًا أخرى قليلة تتعلق بالأفعال وليس

الأفكار. كانت هي -مع كتبها- من علمني رويدًا رويدًا كيف أتخيل وأفكر وكيف أرتب الأفكار التي تطرأ لي بوضوح، بل وحتى المشاعر التي خالجتني قبل أن أعرف كل شيء، وعبر مساعدتها تعلمت سريعًا، رغم أنني لم أظن نفسي ألمعيًا من قبل، إذ إنني لم أكن قط على هذه الشاكلة، أما ابنانا، فلأنهما من نسلها ونفس دمها فكانا أكثر ذكاء مني، بل إن عملها معهما كان أفضل مني، إذ كان المرء يحب الإنصات لهما حينما يتحدثان، فبالنسبة لي -أنا الذي لم يعرف قط شخصًا مهمًا في حياته- بدا الأمر كأنهما أميران. صغيرنا الجديد، خوليو، حتى وإن لم يكن يتحدث، يبدو نبيها جدًا، لهذا ليس لدي أدنى شك في أنها ستصنع منه صبيًا مؤهلًا وكفئًا. إن ظل صامتًا بالطبع سيواجه مشكلات، لكن مع إمعان النظر، فمع تلك الحرب الموجودة هناك، ستكون مشكلاته أقل من أولئك الذين يفرطون في الحديث. لم أسألها شيئًا آخر حينما رأيتها منهكة وأغلقت عينيّ. لا أعرف لكم من الوقت نمت. حلمت أنني أصطاد مع ابنيّ الحقيقيين وأننا نقتل خنزيرًا جبليًا وأرنبًا، وبينما أنا في حلمي، أسلخ اللحم، أيقظتني جلبة الطائرات. عوت الطائرات في البداية وبعدها دوت القنابل. يعتاد المرء في الحرب على الاستيقاظ بغتة والاستفاقة سريعًا، تمامًا كما يحدث حينما يبكي أطفاله في منتصف الليل؛ وبعد دوي القنابل، يدعو سريعا بالصلوات التي يعرفها كما يفعل حين ترعد السماء وتُخشى الصواعق. سقط صاروخان. لم يصب اثنان منهما شيئًا وتركا فقط حفرتين كبيرتين على بعد مائة متر من الطريق، إلا أن الأخير أصاب حافلة المنتصف. توقف سائقنا، لكن «صاحب الماء» نهض وأمره بالاستمرار فأطاعه. ما زلت لا أعرف إن كانت كلمة «صاحب الماء» واجبة النفاذ هنا داخل الحافلة، لكن ثمة قوم من كثرة إلقاء الأوامر، لهم صوت لا بد وأن يُطاع. لم يأت شرطي المنطقة معنا، ولا أعرف إن كان قد سافر في الحافلة الثانية -تلك التي شرذمتها القنبلة- أو الثالثة، أو إذا كان قد مكث في القرية ولم يسافر معنا في المقام الأول.

ما حدث هو أننا واصلنا طريقنا ورحلت الطائرات ولم نعرف شيئًا عن نصيب الحافلة المنكوبة، وإن كان أغلب الظن أنهم جميعًا موتى. تشبثت بي بقوة شديدة لدرجة أن عناقها ترك أثرًا على جسدي، لكن خوليو الصغير لم يستيقظ حتى. ضحكنا على هذا؛ على كيف ينعس التعيس رغم صوت القنابل. أعتقد أننا كنا سعيدين بأن ثلاثتنا ما زلنا على قيد الحياة، وبأننا صعدنا لهذه الحافلة وليس تلك الأخرى. لم ننظر بعدها خلفنا لفترة طويلة، لكيلا نرى الموتى أو -ما هو أسوأ من هذا- لكيلا نرى أحدًا مجروحًا متروكًا لحظه العاثر. حينما التفتنا في النهاية، لم تعد رؤية شيء ممكنة.

سارت الحافلتان الباقيتان عبر الليل نحو وجهتنا التي لم نعرفها. أطفأ السائق المصابيح، تحسبًا لعودة الطائرات وتقدم ببطء أكبر، رغم اكتمال القمر وسهولة رؤية ما هو أمامنا، ذلك الذي غالبا كان يُمكنه أن يرانا. بعد وقت قليل قطعناه، بدأت تتراءى بشائر الصباح، ولم تعد مسألة إطفاء المصابيح أو أي عتمة زائفة تنفع للاختباء. تصورت -من شدة طول الرحلة- أننا قد اقتربنا من الحدود، لكن لأننا لم نتلق أي أخبار مؤكدة عن الحرب منذ أشهر، فكانت تصعُب معرفة إن كانت الحدود لم تزل كما هي؛ بل وأي جزء من الأرض ما زال لنا وأيهُ بات يخص العدو، فالشائع في الحرب أن فائدة الخرائط تستغرق أيامًا فقط، من كثرة تحرك القوات من هنا إلى هناك، بين تقدم وتراجع، لدرجة أن الخطوط المرسومة تنمحي، ووحدها أقدام الجنود فقط ما يحدد هذا وذاك؛ ما هو لي وما هو لك. في ظل معرفتي القليلة بالبلاد ومدى بلادتي الدائمة في مادة الجغرافيا بالمدرسة، كان يصعب عليّ معرفة أين نحن تحديدًا، لكن بدا لي غريبًا أن تكون المدينة الشفافة أو الزجاجية أو أيا كانت بمثل هذا القرب مما كان حتى وقت قريب أرضًا للأعداء، لكن أيضًا لم أستبعد بالمثل احتمالية أننا -رغم الإجلاء والعوز- بدأنا نكسب

الحرب ونغزو أكثر مما يغزونه.

في الحافلة، بدأ الإفطار بالفعل: كان كل فرد معه على الأقل شيء يكفيه لليوم الأول؛ إن لم يكن خبزًا -هذا الذي لم يعد لدينا منه منذ وجدوا الخباز مدانًا بالوشاية- فبعض اللحم المقدد أو رنجة مجففة. تسير مسألة المياه بشكل جيد، إذ إن «صاحب الماء» صعد للحافلة ومعه قارورة كبيرة بسعة ستة لترات، وأفترض أن هذا كان منبع استمرارية سريان أوامره وتنفيذها بحذافيرها. إن أكبر سلطة في الحافلة -دون مجال للشك- تتمثل فيه لأنه يوزع المياه، ولأن السائق أول من شرب منه، يُمكن القول إنه قد بات في جيبه ويُؤجر جيدًا. بعدما أشبع ظمأه وكسُلطة ثانية في الحافلة، أخبرنا السائق عبر مُكبر الصوت بألا نشرب أكثر من القدح الذي يمررونه لنا، فالرحلة طويلة وما زال يتبقى لنا الكثير حتى وجهتنا وكان هذا ما فعلناه. بالطبع، لم يكن «صاحب الماء» هو من حرك القارورة بين صفوف المقاعد، بل الرجل الجالس خلفه، والذي بفضل هذه الصدفة وجد نفسه سريعًا في منصب ذي أهمية، ولهذا أدى مهامه بصرامة جنرالات الجيش في تمام القوات؛ فإن طلب أحدهم مزيدًا من الماء، رفع الرجل الطيب يده سريعًا كأنه سينزل عليه بصفعة، وأمام هذه اللغة فما من أحد قد يعارضها. بعد توزيع جرعات المياه، بدأ القوم يحيون بعضهم ليتحدثوا عن شؤونهم ومن كثرة الحديث لم أفهم شيئًا وللحظة لم تختلف ضوضاء الحافلة عن ضوضاء القرية حينما يجتمع السكان. استيقظ خوليو نهمًا وقدمنا له علبة من سمك التونة وآخر شريحة لدينا من لحم الخنزير المجفف. شكرنا بقبلاته. كانت هذه أول مرة يقبلني، وشعرت حينها حبًا جمًا نحوه ورغبة كبيرة في رعايته.

وصلنا للظهيرة دون طائرات أو مزيد من الغارات، إلا أننا شاهدنا عبر النوافذ أراضي محترقة -كأن العالم يتداعى- وحفرًا كثيرة لقنابل،

ومقابر عدة مُحددة ببنادق مغروسة في الحقول، لدرجة أننا كنا لنقسم أن الكل قد فني باستثنائنا. تبدو المناظر الطبيعية هنا كأماكن نعرفها، إلا أنها مغايرة. لم أسافر قط، لكن أتخيل أن الأرض قاطبة هكذا، على الشاكلة نفسها، من حدها هذا إلى ذلك الآخر. استنتجت من الكتب التي قدمتها لي لأقرأها بينما تحاول تأهيلي أنه لا توجد أشياء شديدة التباين في أي مكان في العالم، ولهذا السبب يحاول الناس ارتداء ألوان مختلفة وترديد أغنيات مختلفة ليحلموا ولو لثانية بأنهم مختلفون في شيء ما. منذ عادت قارورة المياه لمكانها الأصلي -في الحفظ والصون- أسفل قدمي صاحبها، بدأنا نشعر بالجوع والعطش وفجأة دوى انفجار إطار الحافلة كأنه طلقة. ظننت في البداية أنها غارة جديدة، إلا أن الحافلة بدأت على الفور تترنح فوق إطارها المعطوب، وصرخ السائق: ثقب في العجلة! حينما طالبه «صاحب الماء» بتفسيرات، أمسك السائق بالميكروفون -لكن ليس قبل أن يُهدئ من سرعة الحافلة حتى توقفت- وأبلغنا بما يحدث دون ترك مجال للشكوك، إذ قال بهدوء: سيداتي سادتي، تعرضنا لثقب في إطار، ونظرًا لعدم وجود غيار، ستستمر الرحلة بداية من الآن سيرًا على الأقدام.

طالبه «صاحب الماء» -بكل تأثيرات منصبه الافتراضي كقائم بأعمال قيادة رحلتنا- بتفسيرات أكثر واقترح عليه تغيير مكان الإطارات، إلا أن السائق رد قائلا إنه إن لم يكن أحد قد لاحظ الأمر، فهذه ليست حافلة بثمانية عشر إطارًا، ولا 10 إطارات، بل وحتى ليست بثمانية، وإنما مجرد باص قديم بأربعة إطارات بدون غيار احتياطي، والذي في ظل غيابه ليس ثمة حل للمشكلة، وأنه من الأفضل للإنسان أن يرتكز على قدميه وليس على حافلة قديمة تتقدم على ثلاث عجلات. بمجرد اقتناعه بهذه الحُجة -وهو ما لم يكن هينًا- دعانا «صاحب الماء» للخروج بنظام وانتظار المساعدة

من الحافلة الأخيرة في موكبنا الصغير، لكن في أثناء ذلك، سبقتنا الحافلة الثالثة -أو بالأصح الثانية بعد القنبلة التي سقطت على حافلة المنتصف- ومرت متجاهلة إيانا. هكذا فإن لم تكن سلطة «صاحب الماء» قد غدت محل شك، فقد باتت على أقل تقدير -وأمام ناظريه- منزوعة الاستحقاق، إلا أن المتبقي من قارورة المياه كان ما يزال في حوزته، وبسبب الظروف فهذا ماء يخص الجميع، لذا لم يتجرأ أحد على التشكيك في سلطته، باستثناء أن همسات المعارضين -الموجودين دومًا في أي مجموعة- اصطبغت بمكر أكبر. بإيمان -أو ربما بدونه- ترجلنا من الحافلة، فلماذا سنمكث فيها إن كانت قد تعطلت؟ نزلنا بترتيب صعودنا نفسه: هي في البداية، لأنها من ترعانا، والطفل ثانيًا لأنه يُهم، وفي النهاية أنا؛ ذلك الموجود فقط تحسبًا لوقوع شيء ما.

بأقدامنا فوق الأرض، تشكلت مجموعات جديدة وخطط جديدة، من يرغب في العودة ومن يرغب في المضي قدمًا والبحث بنفسه عن المدينة الشفافة دون معرفة مكانها، ونحن -الأقلية- التي جلست في انتظار الأوامر دون أن نعرف بالمثل من يجب أن يصدرها. وقف «صاحب الماء»، الذي بدا دومًا الأكثر سلطة وإن كان هذا فقط لأن السلطة لم تكن شيئًا جديدًا عليه، خلف السائق بينما يفكر، وأعتقد أنه كان صائبًا في تفكيره، فإن كان السائق قادرًا على توصيلنا عبر الحافلة، فهو يعرف كيف يفعلها سيرًا على الأقدام. كان أول شيء -بالطبع- هو معرفة المسافة التي تفصلنا عن موطننا الجديد، إذ إن الماء كان يكفينا ليوم إن شربنا أقل من الجِمال. إذا لم نحسبها جيدًا -إلا إن كان لدى أحدهم معلومات مؤكدة عن آبار أو بحيرات أو أنهار في المنطقة- فمآلنا هو الموت، وهنا ظهر النزاع الأول الكبير، لأن المدينة -كما قال السائق- كانت تقع على بعد يومين على الأقل سيرًا على الأقدام -وهذا

بخطى الأقوياء- ولدينا من الماء ما يكفي ليوم واحد فقط إن سرنا جميعًا معًا، أو لليومين المطلوبين لكي ينجح أسرعنا في الوصول إلى هناك. لم يكن انقسامنا لمجموعتين أمرًا سهلًا، فحقوقنا في نهاية المطاف كانت متساوية منذ البداية، لهذا لم يبق سبيل غير القوة. حينما تغيب كل السبل، وحدها القوة تفرض نفسها، وهكذا تشكلت مجموعتان من الأقوياء، ولم يصعب عليّ كثيرًا ترؤس مجموعتي، إذ إن ذراعيّ من كثرة العمل في الأرض -قبل أن أتعلم حتى القراءة- كانتا كالمطرقة. بينما نتنازع حول كل هذه المسائل، لم تقل هي شيئًا ولم تنفصل عني؛ خبأت الطفل أسفل تنورتها وهي على يقين أن الموت وحده هو من قد يزحزحها من جواري. وكما يحدث دومًا حينما يتعلق الأمر بمجموعتين، تشكلت هناك -بجانب الحافلة المعطوبة- أربع مجموعات. كان هناك من هم أقوى مني بين الرجال، لكنهم أقل تأهبًا للقتال، وأيضًا من هم أكثر نبلًا، وهؤلاء كانوا يحمون -في معارضة للعقلانية- أناسًا أكثر مما تفرضه قدراتهم عليهم. كنت أعتني فقط باثنين ومستعد لبذل حياتي لهما إن استدعى الأمر، وبمجرد أن تعرضت للدفع أوضحت أن هذا ليس عراكي الأول، وأن طرحي أرضًا وأنا فائق ولديّ دوافعي لن يكون سهلًا. تشكلت أربع مجموعات بصورة طبيعية، وأعتقد أننا حينما رأينا أنفسنا في نهاية المطاف منقسمين وصامتين، خشينا جميعًا أن يلحق أحدنا أذى بالآخر، فأن تتخذ سيماء العراك شيء والعراك نفسه شيء مختلف تمامًا. هكذا تولى «صاحب الماء» مسؤولية الاختيار، وفورًا وقف من كان يوزع المياه من القارورة في الحافلة بجانبه لأنه بات متيمًا بالسلطة والماء، أما السائق فلم تكن لديه شكوك وعرف أن قبوله كسيد له أفضل من السير بمفرده. أغلق الصفوف اثنان من القرية كانا يعملان في السد وينقلان جذوع الأشجار كأنها من الريش من كثرة المرات التي رفعوها فيها لتأمين أحواض المياه. لم نكن لندخل في المجموعة الفائزة بفارق ضئيل، لولا إعجابه بشدي وجذبي

مع من هم أكثر ضعفًا وأصحاب النوايا السيئة، ولولا أن زوجته على وجه الخصوص تذكرت بود أقداح الشاي التي احتستها مع زوجتي. كانت هي من أشارت نحونا بإصبعها كآخر المختارين، بينما تهمس لزوجها باسمينا. هذان الاثنان -قال «صاحب الماء»- وبعدها سنرحل. أجابته زوجتي: نحن ثلاثة. أيًّا كان هيا بنا، قالت «صاحبة الماء»، إذ إن ماء السد الرئيسي للوادي وذلك القليل المتبقي منه في القارورة كان ملكها، هو ذلك الماء الذي ورثته من أبيها، هو ذلك الماء الذي لا يحمل اسمًا سوى اسمها.

لم يكن «صاحب الماء» مُختلفًا عني كثيرًا بمعايير الزوج الجيد، مع فارق أنه يرفع صوته حين أصمت أنا بدافع الخجل، ومن كثرة رفعه لصوته بدا كأن كل شيء يخصه، رغم معرفتنا بأنه ليس له. لم أشعر ناحيته قط لا بالخير ولا بالسوء، وتبعته لأن السائق الذي يعرف وجهتنا وقف بجواره، لكنني لم أقسم له بأي ولاء، إذ لم أكن مدينًا له بشيء. حينها اكتملت مجموعتنا، لم نكن في حاجة لعد أفرادها؛ كنا ثمانية فقط بجانب الصغير خوليو. «صاحبا الماء» والسائق، وحامل القارورة، وعاملا السد السابقان وهي وأنا. سارت زوجتي و«صاحبة الماء» معًا وكل منهما تتأبط ذراع الأخرى، ما أعطانا وضعية ما أنا والطفل لعلاقتنا بهما، وإن كنا قد سرنا خلفهما وبعيدًا نوعًا ما. بقيت الحقائب في الحافلة بعد وقت طويل قضيناه في اختيار ما سنأخذه وما سنتركه. كانت لتصبح عقبة في الطريق، لكن شرطي المنطقة سبق وأخبرنا بأنهم سيوفرون لنا في المدينة الشفافة كل ما هو ضروري للعيش. احتفظت فقط بصور الولدين، إذ إنه كان لدينا ما يكفينا من جهل بأحوالهما لكيلا نخاطر بنسيان وجهيهما أيضًا.

لأنها متحوطة، أخذت المأكولات القليلة المتبقية، فالطريق طويل وستنفع حينما يضغط الجوع، أما ما يخص «صاحبي الماء» فأفترض أنه قد

نُقل وحده بشاحنات. القوم المهمون لا يحملون شيئًا فوق كواهلهم، ولا بد أن ما يخصهم من متعلقات قد وصل إلى المدينة الشفافة وبات في الحفظ والصون. سرنا كثيرًا عبر السهل في صف شبه مستقيم، وبينما نتقدم نحو سلسلة الجبال، مع كل خطوة، إذا بالتضاريس تغدو أكثر التواءً. قبل أن نبدأ في رؤية الجبال، عرفنا نحن -أهل الريف- أن الأرض ستنحدر. باتت أقدامنا ثقيلة وتضاعف المجهود بين كل خطوة وتلك التي تليها. تقدم السائق الصف، مستعينا بخريطة بحثًا عن طريق مختصر؛ فكما قال وكان محقًا في قوله: إن قيادة سيارة على الطريق شيء والسير على الأقدام شيء مُغاير تمامًا، فالسير له طرقه المختصرة. سار «صاحب الماء» خلف السائق بينما ينظر بين الفينة والأخرى ليرى إن كانتا السيدتان تسيران خلفه، وبالمثل أظن لمعرفة إن كانتا تتحدثان كثيرًا، إذ إنه لا يوجد رجل يحب أن تتحدث زوجته كثيرًا، لأنه بين ضحكات ومآسي النساء، يُضرب الزوج دومًا بعصا ما، أما أنا -السائر في الخلف- فكنت أنظر فقط لزوجتي لأرى إن كانت ستتعثر فأركض لنجدتها. لم أخش قط من أي شيء قد تقوله أو لا تقوله، ربما لأن أسوأ الأمور قد قيلت عني في زفافنا ولا يوجد قطعًا ما هو أسوأ مما قيل. الآن وبينما نسير طليقين بلا أرض أو مواريث، أدرك أنني ما زلت أحبها، بل أحبها أكثر من أي وقت مضى ودون ذرة خجل. ربما هي الصعوبات ما تجعل كل الأمور سواسية، إلا أنني أفكر الآن -وربما لأول مرة- أن حبي لها حقيقي، دون خوف من الوضعية التي كنت عليها وأنا من مستخدميها، بل وأشعر بجسارة أكبر من تلك التي لم أتخيل قط أنها لدي حينما صرت زوجًا لها.. إن كنت أنظر لها، فلأنني أخشى أن تتعثر، ولأنني أيضا، حينما أراها هكذا من بعيد، تبدو لي أكثر جمالًا مما عليه الأمر عندما تكون بجواري. لست بارعًا في الأشعار، إلا أن أي رجل مغرم -ولو حتى قليلًا- يعرف ما أتحدث عنه. إن النظر لامرأة لا يقارن أبدًا بمعانقتها، إذ إن العناق يُقربهما

كثيرًا فيُحجب كل شيء، أما مع المسافة، حين يفصل الرجل نفسه، فإذا بالمرأة التي يحبها تبدو كتلك الأشياء التي تثير الإعجاب عن بُعد.

كنت أفكر في هذا، في حبها أكثر وبصورة أفضل، وفي ألا يؤخرني الصغير باصطياد حشرات الجنادب، حينما داس حامل القارورة على لغم وفي ظرف ثانية اكتسينا بالحزن، فالقليل الذي بقي من حامل القارورة هذا لم يكن أمهر الجراحين ليقدروا على جمعه. حقول الألغام ليست من هذه الحرب، بل من تلك السابقة، وما زالت مدفونة. علمت أمورًا عن أناس في الجبل خطوا فوقها إثر إهمالهم للحيطة. تُرى الألغام بين الأجمات إثر علامات حولها، فحيوانات الخُلد تشمها وتطوقها فتغدو الأرض المدفونة فيها مستوية. لم يكن حامل القارورة من الريف. أظن أنني لمحته سابقًا عند مخازن المؤن، إلا أنني لست على يقين من هذا، ما أنا على يقين منه أنه لم يكن من الريف ولهذا داس على اللغم دون أن يُدرك. كانت مشاهدة الأمر قبيحة وأغلقت السيدتان عيونهما. سقطت القارورة الكبيرة متدحرجة فوق منحدر واضطر أحد عاملي السد السابقين للنزول لاستعادتها دون أن يدك عنقه بين الصخور بصورة إعجازية، لكنه في النهاية عاد بها وظل يحملها حتى بدأت خيوط الليل تتسحب. شربنا نحن الرجال مرة واحدة قبل الغروب. تظاهر الصغير بكونه رجلًا وشرب نفس ما شربته، أما السيدتان فشربتا مرتين، لكنها مجرد رشفات، فالمرأة إن كانت ذات شأن لا تفتح فمها بالكاد لا للأكل أو لغيره، وهاتان -كما تقول أمي- كانتا سيدتين ذواتَي شأن من المهد للحد، ومن هن على هذه الشاكلة من النساء يُعرفن من بعيد دون حاجة لأسماء، لأنهن قلما يفتحن أفواههن، وإن فعلنها فيفعلنها عن حق ولسبب ما. لأضرب مثالًا، سأقول إن زوجتي أخذت من الجبل خوذة جندي ملقاة ومضرجة بالدماء، وحينما شعرنا جميعا بالاشمئزاز، قالت إنها

إن نُظفت جيدًا ستصلح كقدر لحساء ولم نجد بدًا من الإقرار بكونها على حق. نظفتها بعدها ببعض التراب وأوراق الأشجار في لحظة، وأدرك من لم يعرفها أنها امرأة جديرة بالثقة، وهي المسألة التي كنت أعرفها منذ الأزل.

لم يكن الليل قد خيم بالكامل حينما بدأت الخلافات بين عاملي السد السابقين؛ فلماذا لا نستريح؟ وهل نعرف حقًا أين هي وجهتنا؟ ولماذا كلمة «صاحب الماء» مسموعة، إن كان الماء قد شارف على الانتهاء؟ وهكذا تبادل الاثنان التأفف حتى قال أحدهما لزميله إنه إن كانت كلمة «صاحب الماء» مسموعة، فهذا لأن بحوزته مسدسًا. سمعت كل هذا وأنا أسير خلفهما وسعدت بأن أحدنا مسلح وتمنيت أن يكون على صواب؛ ففي ظل سريان الأمور بهذه الطريقة، كنا سننام في العراء، والنوم في العراء بجوار نار متأججة أفضل إن كنت مسلحًا، إذ إن النظام -أو أي شيء غيره- لا وجود له بدون سلاح. حينما أصدر «صاحب الماء» أمرًا بالتوقف لدى دخولنا غابة صغيرة قد تحمينا، أطعناه جميعًا، كأن هذا المسدس موجود فعلًا، وذلك دون أن نعرف إن كان حقًا يحمله، وعندما أمر بإشعال النار لصنع الحساء، شرعنا ننفذ ما قاله، رغم أننا كنا نجهل أي حساء سيكون هذا.

بينما تجمع السيدتان معًا ما يُمكن أكله، بحثنا نحن الرجال عن أفرع وما قد يصلح لصنع المرق، باستثناء «صاحب الماء» والسائق، إذ جلسا يطالعان الخريطة لمعرفة إن كنا نسير جيدًا. ذهبنا نحن البقية بحثًا عن الحطب. لا يبدو لي سيئًا أو غريبًا أن يفكر المسؤولون في الأمور على أن نفعلها نحن البقية، إذ إنني استوعبت مفهوم الحكم دومًا بهذه الطريقة، بل ومارسته بالصورة نفسها حينما تحولت من حاصد إلى رئيس للعمال، ومن رئيس للعمال لصاحب الأرض، حتى وإن كان الحب سببًا في هذا.

قال الأضخم بين عاملي السد السابقين -وهو رجل على الأقل في مثل

حجمي- كأن الأمر به لمسة من الخفة إنه بعظام حامل القارورة كنا لنتمكن من صنع حساء. لست في حاجة لقول إننا جميعا رمقناه بازدراء عميق وأقصيناه -دون أن ننبس بشيء- من قائمة تعاطفنا. حينما يضطر المرء للسير مغصوبًا في مجموعة لم يخترها، يصعب قول من نحبه أكثر ومن نحبه أقل، إلا أنه يصبح ممتنًا حين يتقدم أحمق ما ويُعرّف بنفسه سريعًا كأسوأ شخص؛ وهكذا يتحسن شعور الآخرين على الفور، إذ إنهم يعرفون من الذي لن يفتقدوه مستقبلًا. في هذه الحالة، لم نكن لنحكم بيقين أكثر من هذا، لأن الأضخم بين عاملي السد السابقين، بخلاف تململه سريعًا من البحث عن الفروع وجلب أكثرها رطوبة -كأنه يجهل ماهية إشعال نيران- كان يشرب في الخفاء من قنينة صغيرة لم يتشاركها حتى مع زميله القديم. كل هذا لاحظته أنا ولاحظه الصغير خوليو ونحن نجمع الأخشاب والأوراق الجافة. شاهدنا أيضًا الشجار الذي وقع بينهما -بين عاملي السد- حينما رغب الأصغر حجمًا بعضًا من نبيذ الأضخم؛ شاهدنا كيف ضرب الأصغر الأضخم بحجر فوق رأسه ليصرعه ويسرق نبيذه. رأيناه كيف انطلق بعدها فارًّا كمجرم يجهل أن ما تَحصّل عليه لن يكفيه للطريق الطويل الذي ينتظره. اقتربت أنا والصغير خوليو من القتيل، الذي كان قد لفظ آخر أنفاسه من شدة الضربة، ونظرًا لعجزنا عن تقديم يد عون له، فتشنا جيوبه بحثًا عن عملات أو شيء ما ووجدنا تبغًا. هناك وفي المكان ذاته، تقاسمنا أنا والصغير دخان السيجارة نفسها، على بعد خطوتين بالكاد من القتيل، بل واحتفظنا بالباقي: عشر لفافات إضافية بدت لي بالنظر للظروف ولمنع زوجتي لي من التدخين قبل أن تبدأ الحرب بوقت كبير -منذ استحلت من مستخدم لديها إلى كوني حبيبها- كأنها كنز. إن تدخين الصغار للتبغ لا يبدو لي سيئًا، لأن صيرورتي كرجل بدأت هكذا، حتى وإن قالوا الآن إنه أمر سيئ للغاية. أنا لست طبيبًا ولا أود أن أكون طبيبًا، لذا ليس لدي مبرر لمعرفة ما قد

يقوله خبراء الطب، وبالمناسبة لم تكن هذه سيجارة الصغير الأولى، إذ إنه لم يسعل قط وسحب نفسًا تلو الآخر كأنه بحار بصدر مشعر. بعدما فرغنا من السيجارة، عدنا معًا. لن أقول إننا كنا نُصَفِر غير مبالين، لكن شيئًا من هذا القبيل، ففي نهاية المطاف لم نكن قد أذنبنا في شيء. قلت؛ أو بالأصح كذبت على بقية المجموعة -السائق و«صاحب الماء» وزوجتينا- بإخبارهم أن عاملي السد قد فرا وصارا يسيران وفقًا لهواهما وعلى مسؤوليتهما. لم يبد أن أحدهم قد اهتم، فهكذا سيكفينا الحساء القليل الموجود بمقدار الضعف، فكما يقولون في قريتي: الأكلة الهنية لا تكفي 100! حينما سألتني على انفراد، أخبرتها بالحقيقة، إذ أجهل كيفية الكذب عليها. قلت لها إن أحدهما قتل الآخر بسبب النبيذ ثم انطلق فارًّا. كذبت عليها فقط في مسألة السجائر وكان فِعلًا سيئًا لأن أنفاسي كانت متشبعة بها، لكنها غفرت لي بل وطلبت مني واحدة لما بعد العشاء، وبهذه النهاية من طرفها تجاه ما اقترفته ضحكنا كثيرًا. شرعت بعدها تُعد الحساء ويجب القول إنها صنعت سحرًا بإخراج المرق مما لدينا، والذي لم يكن شيئًا يُذكر في الأساس؛ فببعض الثمار العنبية وعظمة متآكلة لأرنب عثر عليها الصغير شبه مدفونة بينما يعبث بأظافره أكسبته كثافته، وبأعشاب ومنكهات وما تبقى من عبوة الرنجة أضفت عليه نكهته، وبلا شيء من الماء تقريبًا صنعت ما يكفي ستتنا لمرتين، بعد أن استخدمت خوذة الجندي كقدر. كنا نشعر بجوع شديد، لكنها لم تتوتر أو تتسرع، ومن كثرة تقليب الحساء بعظمة الأرنب نفسها بدا الأمر لي كأن العالم بأكمله يدور حول معصمها، وفكرت في أن مستقبل هذه المجموعة، في غياب أحمقي السد والأبله حامل القارورة، ووجود «صاحبي الماء» والسائق ونحن والطفل قد صار أفضل. لقد شعرت، رغم أنني لم أقلها بصوت عال، بأننا جميعًا نتفق في هذه المسألة على الأقل، فلبرهة صغيرة بينما هي تُقلب الحساء بملعقتها المُرتَجَلة، أحسست بأن شعورًا جيدًا يتملكنا، كأننا عائلة

تقريبًا، حتى وإن كنا بعيدين عن كل ما يخصنا وقريبين من العدم.

في وقت النوم، رقدنا متلاصقين بجوار الأتون المتقد، إذ كان يبعث دفئًا دون أن تُخشى نيرانه. كان السائق طويلًا جدًا وأبعد جسده بعض الشيء لكيلا يحرق قدميه. رقدت بجوار السائق، محاولًا ألا ألمسه، بينما وضعت هي رأسها فوق صدري وفي المساحة المثلثة التي تركناها فارغة نام الصغير. بجوار زوجتي رقدت «صاحبة الماء». كانتا منهكتين، إلا أن أيًا منهما لم تبد مُنفرة، وبجوارها رقد زوجها، ذلك الذي تزوج من الماء دون استحقاق، وربما يحمل مسدسًا. كنا قد سرنا مسافة كبيرة في يوم شديد الغرابة، ولهذا غفونا سريعًا مستسلمين؛ وأبصرت بعين بلهاء -تلك التي تنغلق ولا تنغلق- الصغير يتحرك وينهض. شعرت ببعض القلق، إلا أنني حينما سمعته يتبول استعدت سكينتي وعانقتها بقوة ونمت. لست من مُحبي حكاية الأحلام، إذ يبدو لي سماع أحلام الآخرين مملًا، لهذا لنقتصر فقط على قول إنني حلمت بالحساء وأدوار جديدة منه؛ الحساء والمزيد من الحساء، إذ بدا الأمر كأن هذا الحساء المصنوع في خوذة جندي ميت يتسع لكل ما كنا عليه قبل حرق منزلنا. لم يكن هناك شيء في أحلامي سوى كثافة هذا الحساء الملعون، وظل الأمر هكذا حتى استيقظت.

*****

مع انبلاج الصباح، سعدت بإلقاء كابوسي خلف ظهري ثم ارتعبت بعدها حد الموت، إذ إنني بمجرد أن سمعت زقزقة العصافير فتحت عينيّ لأجد مُسدسا مُشهرًا في وجهي. يبدو أن «صاحب الماء» كان يخفي سلاحًا بالفعل، إلا أن من صوبه نحوي كان صغيرنا خوليو. فعلها ليلعب، دون نية لقتلي. نزعته من يديه وأخفيته في سروالي. كان سلاحًا صغيرًا. هو مسدس «أسترا» عيار تسعة مليمترات مزود بمقبض من عرق اللؤلؤ؛ مسدس أجنبي من طينة الأثرياء. إصدار محدود لهواة الاقتناء، لكنه من تلك النوعية التي لا تعطب أبدًا. لم ألتحق بالتجنيد، إذ لم يصبني الدور، إلا أن لدي معرفتي المحدودة بالأسلحة الصغيرة والكبيرة أيضًا. كأحد كسالى الريف، أهوى الرصاص. هو طارد الوحوش وقاتلها. حينما يسير المرء بمفرده لوقت طويل -وأنا كنت طفلًا وحيدًا للغاية- فمن الأفضل ألا يفعلها أعزل، بل مسلحًا. افترضت أن خوليو قد أخذه دون أن يلحظه أحد، لأنهم كانوا جميعًا نيامًا بينما يشخر «صاحب الماء» بفم مفتوح. لا حاجة لقول إنني وبخت الصغير بنظرة حادة، إلا أنني لم أرفع صوتي لكيلا أوقظ البقية ثم شرعت أفكر فورًا فيما يجب فعله بمسدس السعد هذا.. إذا أعدته لصاحبه -لـ«صاحب الماء»- فسأحصل على بعض من فضله، لكن فضله كان لدي بالفعل بسبب زوجتينا، وإذا لم أرده له، فسأنزع عنه رداء القوة والسلطة، فبدون سلاح سيعجز عن الدفاع عن الماء المتبقي، بل ولن يقدر على إملاء أوامره بمثل هذا الثبات. يمكنني استغلال شكوكه لرعاية عائلتي بصورة أفضل؛ إن شك في السائق فسيجد نفسه جاهلًا لسبيل

الوصول للمدينة الشفافة، إن شك فيّ فسيبقى وحيدًا مع السائق دون أن يعرف من يحمل المسدس، وإن شك في الكل، فسيجد نفسه مع زوجته، وسأبقى أنا مع السائق وخارطته والمسدس دون أن يأمرني أحد؛ أي أنني بمعنى آخر سأغدو روح عُصبتنا دون زعيم ليفرض عليّ متى أقف ومتى أتحرك. بينما أفكر في خططي، ضحك الطفل بخبث كأنه يخمن ما يجول في خاطري، بل وبدا كمن يفرك يديه ترقبًا لنتيجة فعلته السيئة. بمجرد أن اتخذت قراري، اقتربت بحذر من «صاحب الماء» لكيلا أعكر نوم السيدتين وأيقظته بنعومة بالغة، بلمسة بالكاد في كتفه. بعدها وفي صمت، سلمته مسدسه ليعيده لمكانه فشكرني، بل إنه نهض وعانقني. شاهد الصغير خوليو المسألة دون أن يفهم شيئًا وحينما عدت بجواره، شرحت له ما ظننت في لحظتها أنه أدق تفسير ممكن؛ قلت له بينما أنظر لعينيه: إن كل ما هو ليس جيدًا فهو سيئ، وكل ما هو سيئ لا يجلب سوى الشر، وأضفت: إن راحة ضمير المرء هي أفضل ميزة في هذه الحياة.

استيقظت السيدتان من الضجة الخافتة التي أثرناها، أو ربما لأنهما أخذتا كفايتهما من النوم. ظل السائق يشخر حتى أيقظه «صاحب الماء» بطرف حذائه. عندما رأيته يفعلها، ندمت نوعًا ما على إعادة المسدس له، لكن ليس بصورة كلية، لأنني كنت أود أن أُعَلِم الصغير درسًا ما وهو ألا يُغير شيئًا في نظام الأمور القائم. نظفت الزوجتان وجهيهما باللعاب، كمعشر الدببة، إذ إن ما تبقى من قارورة المياه لم يكف للاغتسال، لهذا فبعد رشفة صغيرة تلو الأخرى انتهى ما فيها من مخزون. بعد انتهاء الماء، لم تبق أي سلطة باستثناء الخارطة والمسدس، الذي لم يعلم أحد بشأنه سواي أنا والطفل، وبالطبع صاحبه.

بمجرد أن انتهى كل منا من التمطع، انطلقنا في مسيرتنا، ولأن عدننا

صار أقل لم تكن هناك حاجة لإصدار أوامر. فتح السائق الخارطة وقال: من هنا، ومن هناك سرنا. بخروجنا من الغابة الصغيرة، بدأت سلسلة الجبال تنحدر نحو الأسفل، وما كان بالأمس صعودًا صعبًا صار اليوم نزولًا مغمورًا بالسعادة. لم تعد تسير بجوار «صاحبة الماء» بل بجواري بينما تتأبط ذراعي والصغير خوليو يتواثب من حولنا. كان النهار بديعًا، فنسينا الحرب وكل شيء لبرهة ومضينا. اجتزنا مسافة كبيرة بدون مياه، إلا أن أحدًا لم يتململ وهكذا تركنا سلسلة الجبال خلفنا ودخلنا في مرج لم تُر نهايته من شدة ضخامته وعلو العشب الذي وصل لخصورنا. خطرت لها فكرة عض سيقان النباتات، ففيها ماء وعصارة. أحسست بكوني أحمق، إذ إنني -رغم أصلي الريفي- لم أفكر في الأمر. مضغنا البراعم الخضراء كأننا أبقار، واستشعرنا -أو كنت أنا على الأقل من استشعر- اكتساب سيقاننا لبعض القوة وكذا استفاقة رؤوسنا، وبينما نجتر إفطارنا العجيب، ظهرت الدورية. سمعنا في البداية صرير شفرات المروحية، وعندما نظرنا نحو السماء، إذا بها تظهر فوقنا بين السحب تهز العُشب وتُطَيّر شعرنا وملابسنا، لدرجة أن الفارق لكي تشعر السيدتان بالخزي من شدة رفع الهواء لتنورتيهما كان ضئيلًا. ظننا أن المروحية ستهبط، إلا أنها لم تفعلها وبينما نتأملها، إذا بمدرعة حربية لم نبصرها من قبل تظهر داعسة العشب أمامنا. صباح الخير يا سادة، قال لنا ملازم يرتدي طاقم جيشنا، ذلك الذي يرتديه ابناي، فرددنا التحية بصوت واحد ثم سألنا: إلى أين أنتم ذاهبون؟، رافعا رشاشه في وجهنا، فقلنا له إننا ذاهبون إلى حيث أمرونا، إلى المدينة الشفافة. صراحةً، كان «صاحب الماء» هو من قالها وأومأنا جميعًا برؤوسنا. حينئذ، طلب منا الملازم وثائقنا وسلم كل منا ورقه؛ قدمت له وثائقنا نحن الثلاثة: وثائقها ووثائقي ووثائق الصغير -رغم أن تلك الأخيرة مزيفة- فكل الأوراق كان قد انطبع عليها ختم شرطي المنطقة وكل شيء في مكانه؛

لهذا قبلها الملازم الذي هدأ قليلًا وأنزل سلاحه حينما تحقق من قانونية الوضع. تقدم السائق وأظهر له باحترام الخارطة لمعرفة إن كان بإمكانه أن يرشدنا. قال لنا: أنتم تسيرون بشكل خاطئ؛ على بعد ثلاثين كيلومترا على الأقل من شرق الطريق الصحيح، ثم أخرج قلمًا ورسم الطريق الصحيح فوق الخارطة وأشار بإصبعه نحو الاتجاه الصحيح قبل أن يضيف: كنا لنوصلكم، لكن ثمة أعداء في هذه المنطقة ولدينا مهمة مختلفة. تفهمناه تمامًا وشكرناه ولدى مرورنا بجوار المدرعة، سألته هي عن ابنينا، لكن الملازم شرح لها -بأدب شديد- أن الجيش مؤسسة ضخمة، وأنه لا يمكن لفرد واحد أن يعرف كل الجنود. أغرب شيء جرى حينما تجرأ «صاحب الماء» على طلب مياه من الملازم، ليجيبه الأخير بأن الماء صار سلعة باهظة نتيجة لغياب الأمطار وتخريب الآبار وأسعار المُضاربين الذين يستخرجونه من السدود، ورغمًا عن هذا -ربما لأنه شخص طيب- فقد ترك لنا زمزمية، وبشَّرنا بأننا إذا لم نخطئ الطريق، فسنصل للمدينة أحياء، لكن عطشى. سألت «صاحبة الماء» كم يتبقى تحديدًا على المدينة وأجابها الملازم بأنه بوتيرة سير جيدة ستستغرق المسألة يومًا يتضمن ليلة جيدة من الراحة -فالسير في العتمة ليس له معنى- وصباحًا آخر من السير. لم يَبدُ لنا الماء كافيًا لتلك الفترة، لكن ما الفائدة من التفكير في طلب المزيد إن كنا لن نحصل عليه؟ ما كشفه لنا حقًا هو أنه ثمة فندق مهجور في الطريق لكي نقضي الليلة تحت سقف آمن، وأننا ربما نجد هناك شيئًا لنأكله ونشربه، إذ إنه لم تمر فترة طويلة على كونه خاويًا. كان فندقًا للأعداء، فكل هذا الجانب من الأرض يخص الأعداء، لذا فإن المُضي عبره والتململ مما هو موجود لم يكن صائبًا. نهب جنوده هذا الفندق مرتين، ما يفرض علينا ألا نُفرِط في توقعاتنا. أخبرنا الملازم بهذا قبل أن يستدير نحو المدرعة ليواصل مراقبته للمنطقة، أو لاستئناف الدورية وفقا لمصطلحاتهم. ظلت المروحية طوال المحادثة على

بعد مسافة حذرة، وقد يتخيل المرء أنها كانت توجه مدافعها نحونا في تلك الأثناء. حينما ابتعدت المدرعة، ارتفعت الطائرة ومضت وسكن العشب وتوقفت الجلبة، الأمر الذي حمدناه، إذ إننا اضطررنا قبلها للتفاهم مع الملازم عبر الصراخ.

اجتزنا المرج في نحو ساعتين، امتلأنا غالبًا بالبراغيث أو شيء من هذا القبيل، فنحن لم نتوقف عن حك أجسامنا حتى بعدها بساعتين، لدرجة أن الصغير خوليو قد ألقى بنفسه على الأرض ليفرك جسده كنعجة ولا أعرف إن كان قد فعلها من شدة شعوره بالحرقان أم للمزاح. لو كان دافعه هو السبب الثاني، فقد أجاد دوره، إذ إننا جميعًا ضحكنا لدرجة شعرنا معها بالظمأ. كانت زوجتي هي من أمره بالتوقف عن شغل البهلوانات هذا؛ تعامله كابنها، أو ابن أخيها، بينما أنسى أنا أحيانًا وأظن أنه مجرد لعبة موجودة هنا لإضحاكنا. هي من ذكرني بالأمر. وبختني عن حق ولم أجد مناصًا من الرضوخ. حينما توبخني، تفعلها بنعومة شديدة لدرجة تجعل معها الأمر محُببًا، إذ إنني حينها لا أشعر بأنني أحمق، بل بأنها تهتم بي وبما يعتريني من مشاعر، وخاصة حينما لا تجد بُدًا -كما حدث الآن- من فعلها أمام غرباء. لم أكن لها أي ضغينة قط، وإن استأت -فأحيانا أستاء مثل بقية البشر- فأنسى بعدها الأمر فورًا مع استرجاع كل ما قدمته لي في هذه الحياة، وقلة ما طلبته مني في المقابل.

أبصرنا الفندق الذي أتى الملازم على ذكره لدى خروجنا من المرج، وعلى الرغم من أنه لم يكن بعيدًا، إلا أن الوصول إليه كان صعبًا نظرًا لعلوه الشديد على قمة جبل منحدر له طريق واحد. غمرني وطء الحصى بالراحة، فعلى الرغم من ميلي للريف، إلا أنني أفضل معرفة أين أمضي والطُرق توصل المرء لمقصده أسرع من الدروب، وخاصةً إن كانت دروبًا

يجهلها. اضطررت في صعودنا لحمل الصغير على ذراعيّ من شدة إرهاقه. كنت لأرفعه فوق ظهري كحصان -فهي الطريقة الأكثر راحة- لولا آلام الفقرات. لدي فقرتان مضغوطتان من عدم توخي الحذر اللازم وسقوطي من فوق المَحَشّة[1]. لا يُنغص الأمر عيشتي، إذ أتذكره فقط حينما أرفع حملًا ثقيلًا فوق ظهري. اعتادت أن تدعك ظهري بمراهم تُريحني. لديها يدان قويتان، لكنهما ناعمتان، وأتخيل أنها تُدلك كالمحترفين، وأقول أتخيل لأن ظهري لم تلمسه امرأة سواها طيلة حياتي؛ ليس أنني لم أعرف نساء قبلها، فقد عرفت، لكن لم يكن ثمة حب مع أي منهن. قبل تعارفنا، كنت فظًّا في الشؤون الاجتماعية، وإن كنت على الجانب الآخر شديد الاجتهاد والفاعلية فيما يخصني. تعلمت القراءة وما يكفي من الحساب في المدرسة وفي عمر الثالثة عشرة أدخلني أبي كمستجد في المزرعة، وبعدها في الثامنة عشرة صرت رئيسًا للعمال ومن هذا المنصب نصبني زوج سيدتي الأول مسؤولًا عن الأراضي التي صارت لاحقًا لي. عن هذا الرجل -الذي كان زوجًا لها ورئيسي- لا يحق لي سوى قول كل خير، إذ إنه لم يسئ معاملتي قط وسدد مستحقاتي بكل أمانة، بما فيها الحوافز من فرط سعادته بعملي. كان أكبر بكثير منها ورغم ذلك فقد أحسن معاملتها ورعايتها، بيد أنه لم يكن زوجًا بالمعنى الذي ترجوه امرأة شابة من رجل، هذا بخلاف عجزه عن أن يجعلها تحبل، بل إنه لم يكن حتى يحاول. تقول الألسن السيئة إنه اعتاد النظر لصبية المزرعة كلما ثمل، وكذا فتية الحرث والإسطبلات، إلا أننا -أنا وهي- لم نجد دليلًا قط بخصوص المسألة. يقول بعضهم إن الزيجة كانت في مصلحتها، كما قِيل عني لاحقًا لكن بطريقة مغايرة: فقد كانت من عائلة ذات شأن، وتمتلك أراضي قليلة على النقيض منه؛ أما أنا فلم يكن لدي لا

1. آلة زراعية تستخدم لقطع الحشائش.

هذا أو ذاك. ما حدث أنه مات عجوزًا دون عِلة أو ألم يُذكر، وبعد عامين من دفنه وما كفى وزاد من الحداد صعدت لأول مرة نحو مخدع سيدتي، وبعدها بشهرين تزوجنا كنسيًا، ثم وُلد طفلنا الأول بعد فترة ليست طويلة. إذا كنت ستحسب حساباتك، سيتضح أنها حبلت قبل الزواج، لكن لا أعتقد أننا أول أو آخر ثنائي يُقدم الرغبة على أجراس الزفاف. لم تكن دائرتنا شديدة التكلف في العادات مثل العاصمة، إذ كان كل شخص هنا يفعل ما يحلو له، وما دامت المسألة لم تتعلق بفضائح ذائعة الصيت، فلم يُثر أي شيء جلبة؛ ربما فقط شائعات، إلا أن الشائعات لا تُسمع إذا عمل المرء باجتهاد وصنع ضجيجًا بمطرقته وسندان الحياة ذاتها، وإن سُمعت فيجري تجاهلها، بل وحتى إن فاض الكيل من سماعها لأي سبب، يخرج المرء بندقيته ويطبق الكل أفواههم. أخرست أكثر من أحمق دون إطلاق رصاصة واحدة، وذلك فقط بالتنزه مع بندقيتي الـ(ريمنغتون) عبر الجبل وفي أثناء الأعياد لكي يراها الكل. تتسع البندقية لست طلقات وذات مرة ذهبت للحانة لأحذر أول اثني عشر شخصًا يشككون في أحقية سيادتي على الأراضي خاصتي من أنني سأرد على كل فرد منهم بطلقة، وبعدها سأمضي لمنزلي لجلب مزيد من الطلقات لأرد عليهم من جديد إن استمر تهامسهم. بالطبع لم ينطق أحد شيئًا وشربت نبيذًا بتبجح قبطان سفينة ولم أعد بعدها قط للحانة، وبالمثل القرية، إلا في مرات قليلة.

لم يعد لكل هذه الأمور معنى الآن، فالمنزل قد احترق، والأراضي لا ندري إن كنا سنخطو فوقها مجددًا، وأتخيل أن أحدًا لن يعرف شيئًا عن الآخر في المدينة الجديدة نظرًا لأن سكانها من أنحاء مختلفة، وهكذا لن يصبح ثمة ماض لإخفائه أو الخزي منه. سنكون هي وأنا والطفل هناك كأي شخص آخر، وهو أمر له محاسن ومساوئ. لا أظنها مسألة تصعب عليّ، فأنا لم آت بشيء معي من المهد، إلا أنني أجهل كيف ستتقبل الوضع،

فقد وُلدت كصاحبة لمزرعة خاسرة، ثم زوجوها لاحقًا بأخرى حقيقية. هي قوية بالطبع وتتحلى بالخيال -وهو ما ينقصني- وعبر الخيال يمضي كل شيء بصورة أفضل، ولا يستنكر المرء ما هو أمامه. ربما أنا من لن يهضم -أو على الأقل سأهضم بصورة أقل منها- إشكالية أن تصبح لا أحد، بعد أن اعتدت لفترة على الخير الوفير.

حينما بلغنا الفندق المهجور، كان الصغير يغط في النوم بين ذراعيّ وهي منهكة مهما حاولت مداراة الأمر، أما أنا -ولن أُنكر- فمطحونًا. كان الفندق مُنتجعًا -إن صح التعبير- ومليئًا بآبار المياه الكبريتية، التي نظرًا لعدم استخدامها فاحت بها قد يتخيل المرء أنه رائحة الجحيم. إن كان النوم واجبًا هناك، فلا بُد من فعلها في الرواق مع تفادي اتجاه الرياح، إذ إن وضع قدم واحدة داخل هذا الفندق يُصيب المرء بالغثيان، لهذا دخلنا أنا والسائق فقط لنرى إن كانت ثمة مياه أو شيء يؤكل، وكما أكد الملازم فقد مر جنوده من هنا. أعتقد أنه لو مر على الفندق قطيع من الخنازير لما تركوه في حالة أكثر أسفًا من تلك التي كان عليها. إن الكيفية التي يتعامل البشر بها مع الأشياء التي لا تخصهم صاعقة؛ أقصد تلك الرغبة الموجودة لدى كثيرين في تدمير كل شيء؛ تلك الرغبة التي لا تخرج إلا حينما يُسمح لهم بهذا، إذ يُطلق كل امرئ منهم العنان لأفظع ما في داخله ويهاجم محطيه بحنق مفزع عندما تغيب الرقابة والسلطة والقيادة. حينما شاهدت الفندق من الداخل، الطاولات الملقاة، الآنية المكسورة بغيظ، الفضلات، الزجاج المُغربل بالحجارة، وددت أن أتخيل.. أقول إنني وددت أن أتخيل أن صغيريّ لن يقدما على فعل هذا أبدًا مهما كانت درجة جنديتهما ومهما كانت ضراوة الحرب الموجودة. يسمع المرء دومًا عن الفظائع التي يرتكبها الجنود في مؤخرة الجيش حينما يمنحهم جنون الحرب شهادة صحة ونفاذ ليتوحشوا هم أيضًا، إلا أنني أود فقط التفكير في أننا ربينا ابنينا على التحلي

بالعقلانية ومراقبة تصرفاتها حتى وإن غابت عنهما الرقابة. المهم.. ما فعلناه أنا والسائق كان التجول في الفندق، الذي لم يكن صغيرًا، بعد أن لثمنا وجهينا بمنديلين إثر الرائحة النتنة. بدونا كرجلي عصابات من أفلام الغرب المتوحش، لكن بالنسبة للسرقة، أو ما قد يقال عنه إنه سرقة (وإن كان لا يمكن تسمية أخذ ما هو متروك بالسرقة)، فإننا لم نسرق لأننا لم نعثر على شيء من الأساس، سوى بعض الستائر التي قد نستخدمها كغطاء ضد البرد ولا شيء سواها، إذ إن حشايا الفراش -وكان عشر منها هناك- كانت إما دامية أو تفوح برائحة البول أو ما هو أسوأ منه. لا أود أن أتخيل ما الذي حدث هناك في الداخل وإن كنت آمل حقًا أن يكون الجنود قد عثروا على الفندق خاويًا لدى وصولهم دون وجود أحد في استقبالهم، وبالأخص النساء، فما يفعله الجنود أحيانًا بالفتيات الوحيدات الضعيفات أمر معروف. لم يكن ثمة قتلى، بل آثار لدماء في كل الأنحاء وبالمثل طلقات في الجدران، كأنهم قد أعدموا أكثر من شخص. اتفقنا أنا والسائق -بوجهة نظر سديدة- ألا نترك السيدتين والصغير يدلفون إلى الداخل، إذ إن ما قد يتخيله المرء بخصوص الموجود في الداخل -حتى دون رؤية شيء- قد يكفي ويزيد لألف ليلة من الكوابيس، كما أن رائحة العفن كانت لتجعل السيدتين تتقيآن القليل الذي أكلتاه بين أمس واليوم.

عدنا للرواق بالأنباء السيئة وأيد خاوية باستثناء الستائر، التي على الأقل قد تنفع كأغطية جيدة ونالت استحسان الكل. كان الظلام قد حل وارتعشت السيدتان، على عكس الصغير الذي كان يغط في النوم فوق الأرض الخشبية. غمرني بالسعادة تحققي من أنه ليس بمدلل، بل طفل قوي. ما من حديث فتحناه عن الطعام خشية الشعور بمزيد من الجوع، لكن «صاحب الماء» كان يحتفظ بمفاجأة شاركها على الفور وبكرم مع الجميع، إذ كان قد أخفى في حذائه عبوة لبن مكثف أنبوبية الشكل، والتي

رغم صغرها، ساعدتنا في التقاط أنفاسنا وروت أمخاخنا بالسكر الذي افتقدناه، فبدون السكريات تغيم أفكار المرء. أما أسوأ شيء فكان بالطبع هو العطش الذي شعرنا به بعدما أخذ كل منا جرعة صغيرة من الأنبوب: السيدتان في البداية ومن بعدهما الصغير الذي تناولها دون أن يستيقظ تقريبًا، كما يفعل الصغار حينما يشعرون بالجوع والنعاس معًا.

التصق معجون اللبن المكثف في الحنجرة كأنه معجون نشا، ولم يكن نصيب كل منا في ماء الزمزمية كافيا لتسليكها، وبدا الأمر -أو بدا لي أنا على الأقل- كأنه لم يصل حتى إلى المعدة، وبهذا الغم قررنا النوم محاولين ألا نفكر في مدى سوء هذا الحال لنحلم -على الأقل أنا (بل وربما الجميع) - بالوصول غدًا للمدينة الشفافة لنشرب في نهاية المطاف ماء وفيرًا هناك. تكومنا أنا وهي بجوار الطفل وهمست لي بكلمات حب وغرام قبل أن تنعس، بل إنها أعربت عن فخرها بي، وهو ما لم أفهمه بالكامل وفشلت في تفسير الدافع من ورائه، إلا أنه أشعرني بدفء داخلي وساعدني على ألا أغلق عيني بحزن بالمثل وعلى نسيان بقية احتياجاتي لثانية. مدهشة هي الكيفية التي يُغذي الحب بها المرء ويطمئنه حتى وهو في أحلك الظروف بل وتحديدًا وهو في أحلك الظروف. لم أجب همساتها لأنني لا أعرف كيف أتحدث مثلها ولا تُولد كلمات الحب مني، لكن لكيلا أصبح أقل ودًّا منها وفي محاولة لتغطية محاسنها، عانقتها بقوة وقبلتها في شفتيها ومسدت شعرها حتى سمعتها تتنفس بعمق وفقط حينما تأكدت من نومها سمحت للنعاس بأن يطرق بابي. ربما كان الليل قد شارف على نهايته -قبل نحو ساعة من الشروق- حينما أيقظتني طقطقة خشب الرواق. فتحت عينيّ بالكاد وأبصرت «صاحبي الماء» والسائق واقفين على أهبة الاستعداد للرحيل، كأنهم لصوص يتسحبون ويحاولون بسوء نية ألا

يوقظونا. بالطبع أخذوا معهم الزمزمية والخارطة مقتنعين -كما أتخيل- أن ثلاثة سيصلون أكثر انتعاشًا من ستة بالماء المتبقي فيها، ولأنني أعرف أن «صاحب الماء» مُسلح، إذ كنت أنا من أعدت له المسدس بنفسي، لم يخطر لي أن أنبس ببنت شفة. رغم أن تلك الحيلة الملعونة لم ترق لي، افترضت أنه إذا كانت المدينة قريبة، على بعد نصف يوم، كما قال الملازم، فسنقدر أنا وهي والطفل على الوصول إليها بأنفسنا. إن كانت المدينة شديدة الضخامة لاستقبال كل الدوائر التي تعرضت للإجلاء، فستكون رؤيتها من بعيد ممكنة، وبما أن الملازم أشار بوضوح نحو الشرق، فيجب أن نكون حمقى للغاية لكيلا نصل إليها، وبمجرد أن يحدث هذا سأتولى أنا بنفسي مهمة العثور على «صاحب الماء» التعيس وتصفية حساباتنا. أقسمت بهذا لنفسي وأنا أتابع بطرف عيني بينما أتظاهر بالنوم، كيف مضى الخائنون الثلاثة في حال سبيلهم تاركين إيانا مفترشين الأرض دون أدنى ندم. لا حاجة لقول إنني نفسي ندمت على عدم إبقاء المسدس معي، بل وربما عدم قتلهما هما الاثنان: «صاحب الماء» والسائق، أما السيدة فلا بالطبع، إذ كنت واثقا من أنها لم تُذنب في شيء، وحتى وإن كانت مذنبة، فلست خنزيرًا للدرجة التي أسمح فيها لنفسي بقتل النساء. في الحقيقة، كنت لأعجز عن قتلهما قبل ارتكابهما لشيء لأحصل فقط على الزمزمية والخارطة، بل وبكل تأكيد بعدها، فليس لدي قلب سفاح. هكذا ندمت كذبًا -وليس حقيقةً- على عدم قتلهما. إن الغضب يدفع المرء أحيانا للتفكير في أمور فظيعة فقط لكي ينزع ثقلها من فوق روحه ولكي يدرك -كما أظن- أنه عاجز عن ارتكاب أشياء بعينها. بالمثل حينما ظهرت مهددًا من ينمنمون في الحانة، لم تكن لدي نية لإطلاق النار على أحدهم، بل إنني في الحقيقة لم ألحق بإنسان أي أذى بيديّ طيلة حياتي.. بعد كل ما قِيل، فإن كان يجب عليّ قص ما حدث في الواقع، فسأقول إنني ظهرت وقتئذ في الحانة ببندقيتي، إلا أنني

لم أقل شيئًا أو أهدد أحدًا، ولا أدري الآن لم بالغت كثيرًا حينما قصصت المسألة سابقًا. أفترض أننا جميعًا نُحب المبالغة ونحن نحكي عن جرأتنا، حتى وإن بدا الأمر طفوليًا وغبيًا. لست جسورًا، لكن أحيانًا -ولا أعرف السبب- يقدم المرء على ابتكار مجده إن لم يكن له مجد. المهم.. لم أقل الكثير في الحانة واقتصر ما فعلته على الوجود هناك بالبندقية، وهو ما لم يكن أمرًا غريبًا، إذ كنت عائدًا من الصيد ومعي بعض الحجلان في حزامي وأرنب في حقيبتي الجلدية لأتناول نبيذي وأرحل بين همسات القوم سيئة النية؛ وإذا كنت لم أعد بعدها للحانة، فالخزي هو السبب ولا أعرف حقًا لأي سبب فكرت سابقًا في مسألة القتل هذه، خاصة أنني لم أكن قط على هذه الشاكلة أو أودها. بالطريقة ذاتها، تركت ثلاثتهم يرحلون بدافع الخوف من مسدس «صاحب الماء» أكثر من أي شيء آخر، وما من قيمة لمحاولة البحث عن تفسيرات أخرى، لأنني لست كذابًا بطبعي ولست ماهرًا في خداع نفسي، وإن كان يجب عليّ الاعتذار عن الكذب سابقًا، فأعتذر وكل عام وأنتم بخير.

عجزت عن النوم مجددًا من كثرة التفكير. ابتعدت عنها هي والطفل بحذر، وخرجت من أسفل الستارة الثقيلة، وجلست أراقب الشروق. كان الرب كريمًا في هذا الأمر على الأقل، لأنه بينما تتبدد ظلمة الليلة تمكنت عبر شرفة الرواق من رؤية قبة زجاجية شديدة اللمعان بالقرب من سفح الجبل عبر انعكاس أشعة شمس الصباح الوليدة.

لا مفر من رؤيتها إلا أن تكون من العميان. احتسبت أننا سنصل في ظرف ثلاث ساعات إن سرنا بوتيرة جيدة، وانتظرت بمزيد من الاطمئنان أن تستيقظ عائلتي وكلي توق لإبلاغهما بالخبر السعيد كأنه فطور مغذٍّ. لم أعرف تحديدًا ما الذي قد نجده في تلك المدينة الجديدة، لكن قالوا إنها

شفافة ولم يكذبوا، والحقيقة أن رؤيتها بعد يومين من العوز كانت مريحة.

حينما استيقظا -الطفل وهي- نظرا نحو القبة بنفس الاندهاش والرغبة في الوصول، ومضينا على الفور في طريقنا نحوها.

*****

2

إذا كانت المدينة قد بدت ضخمة من بعيد، فهكذا كانت فعلًا على أرض الواقع عبر مساحتها الهائلة. وإن كانت قد ظهرت عن بُعد فيما نسير كقُبة مستديرة، فقد تجلى عن قُرب أنها مصنوعة من مُعينات زجاجية انغرست برؤوس زواياها في الأرض لتتراكم صعودًا واحدًا فوق الآخر كي تُشكل في النهاية قبة شفافة تحميها بالكامل. إن الكيفية التي صُنع بها شيء مثل هذا تقع خارج إطار معرفتي، لدرجة أنها بدت لي -بل وحتى بالنسبة لها (وهي أكثر اطلاعًا) - كأكثر عمل خرافي قد شاهدناه أو تخيلناه، فنحن لم يسبق وعرفنا مثيلًا لها حتى بين ناطحات السحاب في العاصمة وبناياتها الكُبرى. إن من لم يرها قط سيصعُب عليه وصف حجمها وجمالها، وبالمثل مدى تعقيد كل شيء أسفل قُبتها، فقد كانت تتسع لعدد لا نهائي من الطرق والبنايات والقطارات والمخازن؛ كلها من الزجاج أو مادة أخرى شفافة. لا أظن حقًا أنها من الزجاج، لأنه كان لينكسر تحت ثقله ذاته، إلا أنني لجهلي بالهندسة -أو أيًا كان العلم الذي تماسكت عبره هذه المدينة المهولة والساطعة- فلا أجد طريقة أفضل من هذه لوصفها.

شف كل شيء عن الآخر، فخلف كل مربع سكني كان يُرى الذي يليه وذلك الذي يليه، ما أربك الرؤية، لكن كل شيء كان بالمثل نظيفًا ومرتبًا. لم يكن ثمة طيف لمخبأ أو مكان لا يصل إليه النور في المدينة، أو أن تمييز وجوده على الأقل كان مُستعصيًا. وإذا كانت القُبة التي تحمي كل شيء تتشكل من مُعينات شفافة، فكذا كل الإنشاءات الموجودة في الداخل، كأنها خلية نحل داخل أخرى داخل أخرى، ووسط كل هذا الجلاء، بدا

الأشخاص كنحلات شغالات تتحرك من هنا إلى هناك، كلٌّ وفق مسعاه. طريق الوصول للمدينة واسع ومن ستة مسارات والحركة المرورية فيه شبه منعدمة. قد يخمن المرء أيضًا أنه من داخل المدينة لا يخرج أشخاص كثيرون، وبالمثل لا تصل إليها أشياء كثيرة من خارجها. تساءلت كيف لهم أن يوفروا احتياجات هذا الجمع من البشر دون شاحنات للغذاء وحركة البضائع جيئة وذهابًا، تلك الحركة المتعارف عليها في كل المدن والموانئ البحرية بل وحتى القرى الصغيرة، وكذا إن كان كل ما قد يحتاجه المرء موجودًا بالفعل في الداخل. لم تظهر بالمثل أي مطارات أو قطارات تصل وترحل من المدينة وإليها، بل فقط ذلك القطار الذي يعمل في باطنها وبدا كبيت نمل، ذلك الجحر الذي يعثر عليه المرء أسفل الأرض ويكون مُشيدًا من الداخل دون أي مساعدة خارجية. سرنا ثلاثتنا فقط على الطريق، ولم نلتق خلال الساعة الطويلة التي استغرقناها بأي مخلوق، بل ولم نر أي مركبة تدخل أو تخرج من المدينة الشفافة. كما جرت العادة، لم يقل الطفل شيئًا لكن رأيت كيف أشعت عيناه حماسًا كلما اقتربنا، هذا وأنه في مثل هذه السن الصغيرة لم يكن ليعرف بعد مدى عظمة الأمر. ربما كان المسكين يفكر -من قلة ما افترضت أنه تعلمه في أراضي طفولته- أن مُدنًا مثل هذه موجودة في العالم، إلا أننا كنا نعلم أنه مخطئ، إذ لا يظهر مثيل لها في صور الكتب عن أي دولة أجنبية ولا في القمر أو أي كواكب أخرى، بل إننا لم نسمع عن رحالة ما تحدث في حوليات سفرياته عن مدينة بمثل هذا الجلاء، هذه الضخامة أو هذا العُجاب. كانت المدينة بأكملها مفتوحة لأن قاعدتها من رؤوس زوايا آلاف المُعينات الشفافة، ولم تبدُ مُسيجة أو مُراقبة لا بحراس ولا أسلحة سوى عند المدخل الرئيسي، أو ما افترضنا أنه المدخل الرئيسي حيث كان يُفضي الطريق الوحيد الموجود، إذ ظهرت نقطة حدودية يقف بها حارسان مسلحان طلبا منا الوثائق. سلمناها لهما عن طيب خاطر وبعد أن تفحصاها بعناية وتأكدا

من الأختام الرسمية، استقبلانا بتحية مُشجعة لكنها رسمية: أهلًا وسهلًا بكم في المدينة الشفافة!

لولا الصغير لم أكن لألحظ الأمر المُفزع الوحيد الذي أبصرناه لدى دخولنا المدينة، إذ إن خوليو هو من أشار لنا بيديه نحو جثتي «صاحب الماء» وزوجته المتدليتين بالمقلوب من فوق سارية -أو بالأصح أنبوب من الزجاج- برأسين منكسين كثمرتين فاسدتين بجوار النقطة الحدودية. لم تكن ثمة حاجة للسؤال لمعرفة أنهما قد ماتا، فعلى صدر كل منهما قد حِيكت لافتة ورقية خشنة كُتب عليها بخط اليد كلمة واحدة بأحرف كبيرة: خائن.

غطت عينيها بيديها من فرط الذعر وكذا وجه الصغير، فيما مكثت أحدق كالأبله جاهلًا ما يجب أن أقوله. ليست المسألة أن بيني والرجل ودًّا كبيرا -وأعتقد أن لدي أسبابي- إلا أنني حينما أبصرتهما هكذا أدركت كيف تسير الأمور في العالم الجديد، وقلت لها وللطفل إننا حتى نهضم كيف تعمل العدالة في المدينة الشفافة، فمن الأفضل أن نتوخى أقصى درجات الحذر. رغم ذلك، فإننا فور دخولنا، لم نحصل سوى على اهتمام وعناية؛ صحيح أنهما قُدما بفتور، إلا أنهما لبيا في نهاية المطاف كل واحد من احتياجاتنا المُلحة. كان أول ما فعلوه بعد التحقق من وثائقنا وختمها من جديد هو اقتيادنا لأحد معسكرات اللاجئين حيث عثرنا على قوم كثيرين وصلوا مؤخرًا مثلنا؛ جوعى وفي حالة يُرثى لها. إن كانت خيامًا ميدانية، فهي لم تبد كذلك، فعوضًا عن الصوف -كما هو الحال في الخيام الميدانية التي أعرفها- فقد كانت كلها مصنوعة من نسيج ناصع شفاف أكثر قوة، لكنه في الوقت ذاته أكثر شفافية من الشاش ليُظهر كل ما يقبع داخلها، حتى مرشات الاستحمام. شعرنا بالخجل نحن والصغير حينما رأينا مثل هذا العدد من

الرجال والنساء العراة، لكن يبدو أن الحياء هنا لا محل له، وأن المسألة ربما ستتعلق بالتعود، فكما كانت تقول أمي المُبجلة: «من اختشوا ماتوا».

قبل أن نمضي لمرشات الاستحمام قدموا لنا ماء وفيرًا وفاكهة وخبزًا ولحمًا مجففًا في أطباق صغيرة لكي نتغذى جيدًا دون أن نصل لحد التُخمة، وشوكولاتة لاستعادة الطاقة، بل وحتى قهوة ساخنة، وهو الشيء الذي افتقدناه كثيرًا عبر الرحلة. شحوا في أحاديثهم معنا لدرجة أنني تساءلت إن كانوا أجانب، إلا أن شخصًا يأكل بجواري قال: لا، بل هم «آخر من منا». لم أفهم مسألة «آخر من منا» حتى وقت لاحق، حينما درسوها لنا في فصول التحضير التأهيلية. لقد سمونا أيضًا «آخر المشتبه بهم»، إذ إنه خارج المدينة على ما يبدو -أو وفقًا لما قالوه لنا- صار الكل حلفاء بالفعل وساد السلام في العالم، أما في الداخل فإن من تسول له نفسه الخروج عن النص أو عما يقولونه، يُعتبر عدوًا ويغدو مصيره تزيين سارية البوابة. على النقيض، لم يكن ثمة قلق من رائحة تفسخ الجثث، فقد كانت لديهم طريقة تطهير تنزع الرائحة عن المدينة قاطبة، بأحيائها وأمواتها. سموها «التبلور» وتخضع لها في أول استحمام لك وبالفعل لا تشم معها أبدًا أي رائحة في جسدك كله وكذا أجساد الآخرين. لقد عجزنا أنا وهي -حتى مع لصق أنفينا في جسمينا- عن التعرف على رائحتنا؛ ما كان أمرًا شديد النظافة وشديد الغرابة، لأن رائحة زوجة أي رجل ليس لها مثيل وكل شخص لديه عادة تشمم نفسه وكذلك الشخص الذي يحبه، فأنت كإنسان لا تعرف مدى غرابة شعور أن تفقد حاسة الشم، إلا حينما ينتزعونها منك. ما من شيء في المدينة لم يتعرض للتبلور، ما من شيء في المدينة كانت له رائحة، وبالمثل لم يتعرق أو يبكِ أحد، فما من سوائل بقيت في الأجساد باستثناء البول، الذي انعدمت رائحته بالمثل، وهو أمر قد يمتن له المرء، إذا أُخذ في الاعتبار أن

عملي كان في مصنع إعادة تدوير وتقطير «الفضلات الجسدية»؛ أو بمعنى آخر أنني تخصصت تحديدًا في البول والبراز، والذي بالمناسبة أيضًا لم تكن له أي رائحة، ويجب أن يحصل العالم الذي طرأت له هذه الفكرة على كل الجوائز الموجودة في العالم، فالبراز عديم الرائحة يغدو بعد مرور وقت قليل من العمل وسطه مثل الطمي، لذا فما من هواجس قد يثيرها، لكن لنسر رويدًا رويدًا، إذ إنني من شدة غرابة كل شيء في مدينة الزجاج السعيدة، قد كدست المواضيع فوق بعضها وفقدت خط السرد.. بعد الاستحمام والتبلور، قدموا لنا ملابس نظيفة. لم يكن زيًّا موحدًا بل مجرد قميص وسروال من نسيج خفيف، بل إنهم تركونا ننتقي الألوان. لم تكن ثمة مشكلة مع المقاسات، إذ كان هناك ما يكفي من الملابس لجيش، لكنه جيش بملابس مدنية. كل شيء خفيف؛ من الكتان أو القطن. لا وجود للصوف أو الجلد، فالحرارة معتدلة، مستمرة وتحت السيطرة بصورة دائمة. لا محل للبرد أو الحر مع سريان نسمة بحر خفيفة محببة عديمة الرائحة.

الأمور كلها مثالية وتحت السيطرة في المدينة -أو على الأقل كانت تبدو هكذا- وإن كان يجب المضي قدما في التحقق منها، إذ إنه من المحال أن تكون كل الأمور مثالية في أي مكان قد يذهب المرء إليه، بل وإن حمد الرب واجب على هذه الحقيقة الدامغة؛ أو ربما هو أمر يخصني، فلطالما كنت متوجسًا، أو حتى هلوعًا، وهو الأمر الذي وبختني دومًا بخصوصه. كان مأوانا الأول -هذا لتسميته بشكل ما- هو معسكر الاستقبال. قضينا أول ليلتين فيه بصورة معقولة. أسرِّة فردية مريحة تتراص في صفوف من عشر قطع في مهجع مشترك واسع. ما اضطررنا للتأقلم عليه هو ألا نتعانق فيما نغفو، إذ إننا دوما نمنا على هذه الشاكلة، وبالمثل أقنعة العيون المزعجة؛ فإن كان المناخ ثابتًا ومستمرًا، فكذلك الضوء، فلم يكن ثمة مجال للعتمة في المدينة الشفافة

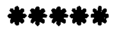
قط. لست طبيبًا، إلا أن لديّ معارف كافية لأتخيل أن هذا لا يُمكن أن يعود بالخير على عقولنا، وأنه -نظرًا لاعتيادنا جميعًا على النهار والليل- فستسقط علينا بالتأكيد تبعات مشؤومة من هذه المسألة. لقد تساءلت إن كانوا قد فعلوها لإصابتنا بالجنون ولم يكن ثمة معنى لتساؤلي، إذ إنهم بخلاف كل هذا، اعتنوا بنا بصورة جيدة للغاية، كأن رفاهيتنا حقا هي شغلهم الشاغل.

كان الصغير أقل من أبدى تذمرًا من موضوع الأقنعة، واستمر في نومه الجيد كما هي عادته، فيما صعب علينا أنا وهي بعض الشيء أن نتصالح مع النوم في ليالينا الأولى، تلك الليالي التي كانت بلا ليل أو أحضان، إلا أنها طمأنتني بقولها إننا سنتأقلم في النهاية، إذ إن الإنسان يتأقلم على كل شيء في الحياة، ما دام لم يجد مفرًّا. لم نصنع صداقات في معسكر الاستقبال، لكن تحدثنا مع بعض معارفنا ممن وصلوا قبلنا في الحافلة الثالثة في موكبنا الصغير. ما من تركيز بدا عليهم، مثلنا تمامًا، إذ شاهدناهم مستسلمين دون احتجاجات كثيرة أو إبداء حماس كبير، فمع حداثة واختلاف كل شيء غدا التفكير صعبًا، إذ يتخيل المرء أن من فكروا في مكان بمثل هذا التنظيم لا بد وأنهم فعلوها لجعل الأمور أفضل، والشكوى من أمور لا تعرفها بعد ليست مناسبة، وأعتقد أن أولئك وهؤلاء في معسكر الاستقبال، ومن بعدهم أنا وهي، فضلنا ببساطة الانتظار وعدم التعجل في إصدار الأحكام.

بالنسبة لبقية الأمور، فرغم أننا لم نخرج من المعسكر حتى انتهاء عملية التبلور التي كانت كحجر صحي، فقد كنا أحرارًا بصورة كافية لنتسامر ونتحرك ونلعب مع الصغير ونواصل أمورنا. ونحن هناك، في الداخل، لم يكن لدينا الكثير لنفعله لدرجة أنهم قدموا لنا ما نقرأه لكيلا نمل؛ ما من صحف أو مجلات، بل كتب من كل الأنواع. ليست روايات فقط، بل أدلة تقنية وكتبًا علمية وعن الطب والهندسة بل والبستنة. باختصار، كتب

تُلبي كل الأذواق وفقًا لتنوع اهتمامات هذا عن ذاك. أخذت هي رواية عن القراصنة اسمها «جزيرة الكنز»، والتي كانت لديها في المنزل وتحبها كثيرًا وكتابًا مقدسًا. أنا لست من هواة القراءة، لكن لتزجية الوقت أخذت أطلسًا ضخمًا ضم صورًا جميلة لكل حيوانات الكوكب ما ساعدني أيضًا في إلهاء الصغير، ويا لسعادة الأوقات التي قضاها خوليو مع هذا الأطلس! لم يمل قط من التحديق في صفحاته وحينما قدموا له ورقًا وأقلامًا من الرصاص، أخذ يرسم الحيوانات واحدًا تلو الآخر من الصفحة الأولى. لم يكن سيئًا بالمرة في المسألة واحتفى الممرضون كثيرًا برسوماته. لقد اكتسب الصغير خلال هذين اليومين بين من يرعوننا أهمية وحبًّا أكثر مني ومنها ومن أي شخص في هذا المهجع. الحقيقة أنه كان الصغير الوحيد في مجموعتنا ومصدرًا كبيرًا لسعادتنا. قالوا لنا عندما أخرجونا من المعسكر إن بإمكاننا الاحتفاظ بالكتب، وابتهج خوليو، إذ كان ينقصه ألف حيوان أو أكثر ليرسمها وتساءلت إن كان سيقدر على إنهائها جميعًا لأن الأطفال أحيانًا يأخذون تسليتهم لفترة من شيء ما ثم يهجرونه، إلا أن هذا لم يحدث، فعبر هذا الأطلس تعلمنا أن صغيرنا -فقد بات صغيرنا الآن- لديه استمرارية والتزام مذهلان حينما يُثير شيء ما اهتمامه حقًّا. لقد سعدت أنا وهي كثيرًا حينما تحققنا من أن خوليو لديه موهبة وثبات، وفكرنا في أن هذا الأمر بلا شك سيعينه كثيرًا أيًا كانت طبيعة الحياة في هذه المدينة. استحممنا ثلاث مرات في اليوم بسبب عملية التبلور، وهكذا في ظرف يومين بللت نفسي أكثر مما اعتدت فعله طيلة أسبوع، إذ إنني لطالما اعتدت تفويت يوم بين كل استحمام وذلك الذي يليه، على عكسها فقد كانت تغتسل يوميًا. قدموا لخوليو مسدس ماء لكيلا يمل من كثرة الاستحمام، وقضى وقتا عظيمًا وهو يبلل مؤخرات الجميع، وحينما أقول الجميع، أقصد كل شاغلي المهجع لأننا كنا نتحمم معًا رجالًا ونساءً مع الطفل، الذي كما سبق وقلت لم يكن ثمة

صغير سواه في مجموعتنا. إن رؤية قوم غرباء أو تعرفهم بالكاد هكذا -كما جلبهم الرب للعالم- لها صدمتها نوعًا ما في البداية، لكن مع الاستحمام الثالث تعتاد على الأمر، ففي نهاية المطاف نحن كلنا سواسية باستثناء بعض اللحم الزائد أو الناقص، ولأن كل حوائط المدينة كانت شفافة ولم يغب نور النهار عنها قط، فلا معنى لأن يعيش المرء مشغولًا بستر عورته أو الإفراط في الحياء.



قلت إن أحوالنا لم تكن سيئة في معسكر الاستقبال، إلا أننا فرحنا للغاية حينما نقلونا إلى منزلنا، وهو أمر منطقي ويسهل فهمه بالنسبة لأي شخص يتمسك بخصوصياته. في الواقع، لم يكن منزلًا بل شقة تقع في واحد من مئات البلوكات السكنية الشفافة. تكونت من مطبخ وحمام وغرفة نوم لثلاثتنا، واحتوت على ثلاثة مقاعد صالون بمسندين جانبيين -بواقع مقعد لكل منا- وأريكة وطاولة كبيرة بشكل كاف لتناول الطعام. كل شيء شديد النظافة، فالتنظيف مسؤولية المدينة -التي سبق وقلنا- إنها شفافة.. شفافة لدرجة أنه إذا نظر المرء حوله، يمينًا أو يسارًا؛ نحو الأعلى أو الأسفل، لرأى كل جيرانه، وهو أمر غريب ومسل في الوقت ذاته. على الأقل في البداية، إذ إنني آمنت أنه لاحقًا سيصير عاديًا ومملًا للغاية، تمامًا كمن يقضي حياته بأكملها شاخصًا إلى المرآة، ذلك لأننا بشر وفي نهاية المطاف نفعل الأشياء نفسها تقريبًا. ما من تلفاز موجود، لا في شقتنا ولا أي شقة أخرى، وما من مذياع أو شيء قد تصدر عنه ضجة، وإن كنت أظن أن مسألة الضجة ليست هي السبب، لأن الجدران، التي بدت شديدة الرقة، كانت مانعة للصوت بصورة مثالية، فرغم رؤية كل شيء، لم يكن ثمة مجال للسمع على الإطلاق. لقد كان للمرء خصوصيته ليتحدث عما يحلو له، لكنها غابت عنه في بقية الأمور، لأنه صار يفعلها على مرأى من الجميع. إن تركيز المرء في أول مرة يُقدم فيها على تلبية نداء الطبيعة وسط هذه الظروف كان -كما قد يتخيل بعضهم- عصيًا، إذ إن الخراء كان ينزلق عبر عدة أنابيب زجاجية تقطع المبنى من أعلى لأسفل، وهو الأمر الذي -مهما أثار ضحك الصغير وبدا له

مسليًا- كان شديد الغرابة. ما من طيف لرائحة، أو أن انعدامها كان عوضًا عن رؤيتها. إن الخراء في ذلك العالم الذي عشنا فيه من قبل لم يُر كثيرا لكن رائحته لم تكف عن الفوحان. أعرف أنني قد أطلت أكثر من اللازم في هذه المواضيع التي ليست ذات أهمية كبرى وقميئة وهي شأن يخص كل إنسان، لكن سبق وألمحت إلى أنها باتت من صميم عملي، لهذا فمن المفهوم لم قد احتلت مكانًا بارزًا في ذاكرتي.

لقد حدثوني بشأن وظيفتي الجديدة مع نقلنا للبيت، وأخبروني أين يجب أن أمثُل لأبدأ في أقرب وقت ممكن. أخذوني في المساء ذاته عقب تناول الغداء -إذ كانوا يتركون الطعام لنا في البراد الزجاجي- لمصنع إعادة تدوير وتقطير الفضلات الجسدية. ليس أنهم كانوا سيأخذونني يوميًا من يديّ للعمل، بل لأنني كنت أجهل المدينة، لذا رافقتني إلى هناك سيدة غاية في اللطف وشرحت لي كل شيء بصبر وسلمتني مخططًا لكي أقدر على التنقل بمفردي لاحقًا. لم يكن للمخطط أهمية كبرى، إذ إن المدينة ذاتها مثالية التخطيط وتملؤها الإرشادات ولا بد أن تكون أبله لكي تتيه في شوارعها، وهي الصفة التي لم أكن عليها قط. فضلًا عن هذا، لم يكن العمل بعيدًا، بل على بعد ثلاثة مربعات سكنية فقط. إن هذه المدينة -كما شرحت لي السيدة- لا يعمل فيها أحد بعيدًا عن محل سكنه لكيلا يهدر وقته، وهو ما بدا لي شديد العقلانية.

ولأن الأمور تسير دومًا هكذا، بدأت من أسفل، من أسفل جدًا، في مكان سموه القبو الأبيض وكان يصل إليه كل خراء المدينة. كان القبو ضخمًا وتسير عبره جرارات تسحب حاويات مُسلسلة مُحمّلة بصناديق زجاجية مستطيلة كما النعوش وقد امتلأت كلها بالفضلات، لتشكل ما بدا من بعيد كديدان من الخراء. سلموني رداءً من قطعة واحدة للعمل كأنه قد

فُصِلَ لي خصيصًا وشرحوا لي مهامي. لقد ارتكز واجبي بكل بساطة على قيادة هذه الجرارات، التي لم تختلف كثيرًا عن تلك التي استعملتها سابقًا في المزرعة، لنقل هذه الصناديق من باب نحو آخر. أفضى الباب الأول إلى صالة تجميع وتغليف الفضلات، أما الثاني -عند الطرف الآخر من القبو الأبيض- فإلى مركز إعادة التدوير. بعدها كانت تُفرغ الحاويات ليفعلوا ما يفعلوه بالفضلات؛ والذي عندما شرحوه لي بدا أسطوريًا، إذ إنهم كانوا يستخرجون من الخراء الذي أسحبه -ولا أعرف كيف- أسمدة ووقودًا ومواد بناء، وهكذا فإن كل ما بدا من الزجاج، كان في الأصل مصنوعًا من البولي كربونيت الطبيعي، ذلك المُستخرج بصورة طبيعية من الخراء. كان البول يُقطر في قبو مشابه ويحول إلى ماء صالح للشرب. يشمئز المرء نوعًا ما إن فكر في المسألة، إلا أنها منطقية ومن بعدها عملية، فقد كانت المدينة هكذا توفر احتياجاتها لنفسها بنفسها ولا تفقد حرفيًا نقطة واحدة من مائها أو تفشل في استغلال ولو جرام واحد من فضلاتها. إن ما يجب عليّ قوله هو إن طعم مياه الصنبور في المدينة لم يختلف عن أي جدول في الجبل، ومع أول رشفة من هذا الماء النظيف والنقي والمنعش، ينمحي العطش والخوف.

تلقنت التعليمات الأساسية وشرعت أعمل. لم أسأل عن الراتب أو جدول العطلات أو شيء من هذا القبيل، لأنني افترضت أنهم في مكان مثل هذا طوروه استنادًا على العلم قد درسوا كل شيء باستفاضة، فإن كانوا قادرين على فعل ما يفعلونه بالخراء والبول، فما الذي قد يفعله هؤلاء القوم الطيبون بكل شيء آخر! تخيلت -لأنهم يوفرون لنا المأكل والملبس بل ويقدمون لنا الكتب كهدايا وكذا لأنني لم أبصر بعد أي متاجر للبيع- أنه لا وجود للنقود في المدينة كلها، وهو ما لم يكن فكرة سيئة، إذ إن هذا ينزع عن المرء طموحاته وجشعه ويُعين في مسألة ألا ينظر أحدهم فوق كتف

من بجواره، وكلما مر المزيد من الوقت على وجودي في المدينة الشفافة، اكتشفت أمورًا أكثر، وبدا لي بجلاء أكبر أنهم نظموا كل شيء، ورغم أن مسألة التغيير المفاجئ لا تمر على أحد مرور الكرام، استنتجت صعوبة أن أشكو من شيء. فمسألة أن تروق أو ألا تروق لي وظيفتي وكذلك المنزل الذي وفروه لي، أو حتى عجزي عن شم رائحة زوجتي كما اعتدت، ليست ذات صلة، فالمُلح في وضعية كهذه -كما أظن- هو التأقلم بأسرع صورة ممكنة وليس أن يطلب المرء لبن العصفور. لم يكن عملي شديد الصعوبة، إذ كانت هناك فترة راحة لتناول وجبة خفيفة، بل وللدردشة لبرهة مع الزملاء، الذين قررت أن أدعوهم هكذا منذ وصولي إلى الوظيفة ومعاملتهم جميعًا بمودة لأُظهر أنه ما من مكان للنزاعات أو المشاكل معي، وكذا استعدادي لأصبح مجرد فرد آخر في المجموعة. لقد أدركت بعد أحاديث قليلة معهم أننا جميعًا في الوضعية نفسها، وأن كلًّا منا قد رُحِلَ من مكان ما في البلاد وأنهم لا يعرفون شيئًا عن الحرب ولم تصل لهم أي من أخبارها. لم أجد مناصًا من الاهتمام بمعرفة آخر ما سمعوه قبل دخول المدينة، إذ إن ابنيّ كانا ما يزالان في الجبهة ولم أعرف كيف لنا أن نعثر عليهما أو إن كانا هما سينجحان في العثور علينا. قال لي أحدهم إن آخر ما سمعه هو أن الحرب قد انتهت بالكامل وأننا لم نفز بها ما عزز فرضية أن جنودنا قد باتوا أسرى أو ماتوا. قصصت عليهم مسألة أننا قابلنا جنودًا على بعد عدة كيلومترات من هنا، إلا أنهم ردوا بأنهم قد يكونوا جنودًا للعدو، فقلت لهم إن هذه المسألة مُحالة إذ كانوا يتحدثون لغتنا. حينئذ أوضح لي آخر أن الكثير من جنودنا قد غيروا الجبهة ولم يعودوا منا بل من الأعداء. إن الحقيقة الدامغة هي أنني لم أستوضح إن كان ابناي قد ماتا بالفعل أم أصبحا أسيرين أو إن صارا -كمن رأيناهم- من الأعداء، وإن كنت قد تساءلت بعد إمعان النظر في المسألة: لو كانت الحرب قد انتهت، فلم سيكونان من أعدائي؟ أنا لم أفهم شيئًا عن

هذه الحرب منذ البداية ولا أعرف كيف بدأت بل ولا أي سبب كان وراء القتال تحديدًا. أنهيت دردشة الوجبة الخفيفة جاهلًا إن كنت يجب أن أقلق أكثر أم أقل من ذي قبل بخصوص أوغوستو وبابلو، وطلبت فقط من الرب أن يكونا سالمين وعلى قيد الحياة. لقد روادني الشك كثيرًا إن كان يجب أن أتحدث معها عن كل الأشياء التي سمعتها، وذلك كيلا تفزع، فإذا كانت الحكومة المؤقتة التي نظنها حكومتنا هي في الحقيقة حكومة العدو ولم نعد نحن ما كنا عليه بل جزءًا منهم، فالنظر بعناية إلى ماهية ابنينا وأين يقاتلان -إن كانا يقاتلان- وإلى أي طرف ينتميان الآن قد بات واجبًا. توصلت في النهاية إلى أن الموضوع إشكالية كبيرة، لذا ربما من الأفضل أن نتحدث بخصوصه حينما نعرف المزيد عنه. إننا -داخل الإطار المعقول- لن نطالب أو نطلب بأن يقدموا لنا معلومات إلا حينما نأخذ فكرة دقيقة عن ماهية الحكومة الموجودة معنا؛ هذا طبعًا دون أن نثير استياء أحد، إذ إننا رأينا عبر ما فعلوه مع «صاحبي الماء» كيف يتعامل هؤلاء القوم مع أي انشقاق عن الصف. لقد سرت بالمناسبة شائعة تقول إن «صاحبي الماء» قد احتفظا طيلة تلك الفترة بوحدتي النبض النشط وإنهما كشفا عبر نظام (ريست) تحركات مجموعتنا، بل وإنهما جاءا للمدينة بغرض التجسس وكشف أنشطتها وبالمثل لتحفيز خلايا مقاومة إن استطاعا، ولِكُل هذا وليس لأي سبب آخر قد علقوهما بالمقلوب، إذ إن الأمر الوحيد الممنوع في المدينة التي يُرى فيها كل شيء، هو الاختباء أو تحديدًا التجسس، فما غرض التجسس إذا كان كل شيء مرئيًا وكل النوايا واضحة ومشعة! لم أعرف إن كان يجب أن أصدق الأمر أم لا، إلا أنني كما سبق وقلت -وبناء عليه- توصلت إلى أن طرح الأسئلة هنا وهناك في هذا المكان ليست فكرة مُستحبة.

اضطررت -غصبا عني- إلى إبعاد ابنينا الجنديين عن أفكاري بعد انتهاء راحة الوجبة الخفيفة، إذ إن زملاء العمل كانوا قد جهزوا لي واحدة

من مزحات المستجدين وبمجرد عودتي للجرار بدؤوا في إلقاء كرات من ذلك الخراء عديم الرائحة عليّ والضحك كثيرًا، لدرجة أنني ضحكت في النهاية أيضًا وأعدت الكرّة عليهم بكُراتي الكبيرة، ولو لا أنه خراء لبدا الأمر لي كأننا نلعب كما كنا أطفالًا بكرات الثلج. وصل المُشرف بعد برهة وتوقفنا جميعًا عن عربدتنا وعاد كل منا إلى شؤونه. لم يأخذ المشرف الموضوع على صدره وقال لي إن هذه المزحة طبيعية مع المستجدين ليعرف كل منا الآخر وليفقد احترامه له؛ لنخلق ودًا وروابط، فإن غابت المودة يغدو العمل رتيبا ومملًا وأبديًا، وبالمثل إن كل من في القبو الأبيض زملاء رائعون، وما من داع للقلق، فقد صرت واحدًا منهم بعد انتهاء المزحة التي لن تتبعها أخرى ثقيلة، بل كثير من الاحترام والمساعدة في كل ما قد ينقصني، مع مزاح من نوع آخر، من ذلك الذي يجلب السعادة دون اتساخ، وفقا لمعطيات حركة العمل اليومية. لم تهمني مزحة المستجدين بصورة كبيرة بل وإنني قد استمتعت بها. ظننت أن المُشرف يبالغ بكل هذا التحفظ والشرح، فهذه الأشياء بين الرجال والنساء الذين يعملون معًا ويتشاركون عرقهم -حتى وإن كان عرقهم بلا رائحة- طبيعية للغاية، لكن المشرف كان رجلًا شديد الوقار يُحب الاستفاضة في شرح أكثر الأمور وضوحًا، مُهذبًا ومحترمًا. تركت الجرار في المرأب بعد انتهاء الدوام مع بقية الجرارات الأخرى التي بلغ عددها نحو مائتين أو أكثر وذهبت لمرشات الاستحمام مع زملائي، وهناك أزلنا بقايا الخراء؛ صحيح أنه عديم الرائحة، إلا أنه يلتصق كأي خراء آخر. هكذا خرجنا جميعا منتعشين نظيفين و«متبلورين».

*****

إن كنت قد شعرت بالرضا عن كيفية سير الأمور معي، فقد اتقدت هي حماسًا. من المؤكد أن عملها كأن أفضل من عملي، إلا أن هذا كان منتظرًا إزاء كينونتها التي لطالما عرفتها: تعليمها الأعلى، خيالها الأوسع ومواهبها. لقد عينوها في منصب لا أكثر أو أقل من رئيسة لقطاع كامل في المكتبة العامة، ففي ظل حبها للكتب كان هذا أفضل ما في استطاعتهم. لقد حلمت وهي طفلة بحياة مثل هذه؛ حياة تطوقها كتب تزخر بقصص -بعضها حقيقي وبعضها خيالي- وبمعارف وأفكار وبكل ما هو موجود في ذلك العالم بغرض الاستمتاع والتعلم، إلا أنها رأت بعدها كيف حُكم عليها بالبقاء دومًا وسط الشؤون الدُنيوية للمزارع والأراضي وتربية المواشي. قالت لي إنني كنت خير عون لها في هذا، إلا أنها في النهاية باتت تقدر أخيرًا على القيام بشيء تحبه حقًا بل وربما قد وُلدت من أجله. إن رؤيتها سعيدة بدت لي أمرًا رائعًا. إن كنت قد قلقت نوعًا ما فقد كان محض تَمَسكُن مني بعدما تخيلت أنني لن أكون ذا فائدة في حياة الكتب هذه التي أسعدتها كثيرًا، إلا أنها -كما جرت- العادة طمأنتني فورًا بمجرد إدراكها لمخاوفي، وقالت إنها ترغب في مشاركتي كل ما قد تتعلمه من مستجدات، وإنني سيمكنني دوما -حتى في غياب مزرعة وأرض تحتاج للرعاية- رعايتها باهتمامي وحبي، وهما أمران ستحتاج إليهما طوال حياتها، بل وإنني حينما يعود الولدان سأرعاهم جميعًا: أوغوستو وبابلو وخوليو وهي، لأظل بوصلة وفنار هذه العائلة. أعجبتني مسألة البوصلة والفنار جدًا، لأن أي رجل يسعد بمعرفة أنه مهم. لم أود أن أخبرها بشكوكي الكبرى بخصوص

ابنينا الجنديين، وقررت تأجيل هذه المحادثة لوقت لاحق بعد استقرارنا بصورة أكبر دون أن تضربنا مفاجآت الحياة اليومية.

إن الأمر الوحيد العالق، في ظل سعادتها بوظيفتها ورضاي بتلك التي تخصني وتمهلي للتحري بصورة أكبر عن ولدينا في الحرب بل والحرب نفسها، كان معرفة خطتهم بالنسبة للصغير خوليو والاطمئنان إلى أنه سيحصل أيضًا على العناية والرعاية. الحقيقة أن قوم المدينة الشفافة أو الحكومة أو أيًا كان اسمهم قد أذهلونا بخططهم وفاعليتها. فإن كان كل شيء مجهزًا لنا، نحن معشر البالغين، فأي معاملة مُدهشة ستُقدم للأطفال الذين كانوا بشكل ما أمراء على المدينة! أو «قضية المستقبل الحقيقية» -كما كانوا يدعونهم- ولهم كل الحق في هذا فهؤلاء القوم لا يتحدثون أبدًا من فراغ. إن كانوا قد تركوه في المنزل، فقد فعلوها لكي يرتاح من الرحلة ولكيلا يتعجب منذ البداية من كل جديد وجميل ينتظره، لكنه -كما قالوا لنا- سيبدأ دراسته على الفور، فالتعليم هنا هو جوهر الطفل والتأخير عنه غير مقبول، كما أننا سنحصل على إذن من عملنا الجديد لكي نرافقه ليشرحوا لنا كل شيء بصورة جيدة. مع هذا الخبر السعيد جلس ثلاثتنا على المائدة في أول عشاء لنا في بيتنا بالمدينة الجديدة. احتوى البراد الزجاجي على كل وجبات اليوم: إفطار وغداء وعشاء ووجبة خفيفة واحدة للطفل، لأننا نتناول وجبتينا الخفيفتين في العمل. هذا فقط لا غير؛ إذ إنهم جهزوا الطعام وفقًا لاحتياجات كل فرد، عمره وسنه ووزنه ووظيفته، فذلك هو كل ما كانوا يوفرونه من مأكل؛ ليس رغبة منهم في إصابتنا بالملل، بل لأنه الأسلم صحيًا، فعوضًا عن أن يأكل كل شخص ما يحلو له، كانوا يجهزون أنسب نظام غذائي لكل فرد، وهكذا يشعر المرء بالصحة والقوة مع توفير مبالغ طائلة قد تصرف على الأطباء. إن جهود الأطباء في المدينة الشفافة كانت ترمي للوقاية بصورة أكبر عن العلاج، وليس العكس كما كانت الأمور

هناك، في الخارج، في بقية العالم. لقد تعلمنا كل هذه المسائل بقراءة الأدلة الموجودة بجوار البراد، فهنا إما أن يشرحوا لك كل شيء بصبر أو يتركوا لك دليلًا لكي تعلم أنه ما من تحرك يؤخذ هنا بناء على نزوة وأن كل شيء له أسبابه العقلانية. بعد العشاء، جلسنا نحن الثلاثة على الأريكة لنقرأ لبعض الوقت؛ هي مع كتبها ونحن -أنا والصغير- مع أطلس الحيوانات. كنت أول من نعس واستلقيت بقناعي الذي -بالمناسبة- بدأت أعتاده. وضعت هي الطفل في فراشه الصغير الكائن بالطرف الآخر من الحجرة ثم تكورت بجانبي. تبادلنا القبلات بحب ونمنا. طرأ لي تساؤل حول كيف سنتصرف إن رغبنا في ممارسة الجنس، في ظل نوم الطفل معنا في الحجرة نفسها والعالم بأكمله يرانا عبر الحوائط الزجاجية، إلا أنني افترضت أنهم لا بد وقد فكروا في الموضوع، وأننا ربما يجب أن نذهب لمكان قد جُهز لهذا الصدد، مكان ما للغرام، أو ربما أننا فقط سنمارسه هكذا؛ في الخفاء أسفل الملاءات. لم تكن ثمة بطاطين، إذ إن حرارة البيت والمدينة مثالية وما من حاجة إليها. بالطبع كانت تمطر أحيانًا، لكن ليس داخل المدينة بل خارجها، ما كان أمرًا عجيبًا، إذ كان المرء يرى قطرات المطر تضرب القُبة لكنه لا يسمع شيئًا ويظل ضوء المدينة هو ضوء الظهيرة الجميل هذا الذي لم يتغير قط، سواء ليلًا أو نهارًا أو حتى مع العواصف. بعد قضاء فترة وجيزة هناك، تتوقف عن النظر للسماء، ولأي سبب قد تفعلها إذا كان ما يحدث في الخارج ما من صلة تجمعه بأحوال المناخ في الداخل؟

نمت جيدًا في هذه الليلة وحلمت أنني رحلت للصيد مع الأولاد وأننا قتلنا خنزيرا جبليًا ضخمًا. إن كان ثمة أشياء سأفتقدها في المدينة الشفافة فهي ابناي وبنادقي والصيد في الجبل، لكن حسنًا.. هذا شيء أفتقده منذ فترة ليست بالقليلة، منذ بدأت الحرب تتسحب نحو الدائرة، فمع دوي ولهيب القنابل هربت كل الحيوانات. ربما بمرور الوقت سيعود أوغوستو

وبابلو ومعهما الحيوانات للغابة ليسمحوا لنا بالخروج للصيد في الأنحاء المجاورة. لم يقل لنا أحد إننا أسرى أو إن الخروج خطر أو ممنوع، إلا أننا لتحري الصدق لم نسأل. إن ما يحدث بعد انتزاع المرء من منزله وإيقافه وسط صفوف ونقله لمكان آخر، هو اعتياده على الإعراض عن السؤال، خشية أن تسوء الأمور، إذ إننا رأينا في نهاية المطاف «صاحبي الماء» معلّقين بالمقلوب، وحينئذ تجلى لنا أنه من الأفضل لك مع هؤلاء القوم أن تأتي لهم بالحسنى وليس بما قد يسوؤهم.

حينما وصلت المسؤولة عن اصطحابنا للمدرسة، كنا قد تحممنا وارتدينا ملابسنا وتناولنا إفطارنا بالفعل. إن قوم المدينة غاية في الدقة، لهذا من غير الملائم أن تترك أحدهم ينتظرك. كان طريقنا عبر المدينة أقصر من ذلك الذي قطعته نحو العمل، وأخبرتنا المرأة بأن الصغير بعد اليوم الأول سيذهب وحده، فكل الأطفال يذهبون بمفردهم للمدرسة لأنه ما من خطر عليهم، خلاف أنهم سيتعلمون هكذا تحمل مسؤولية أنفسهم. الحقيقة أنه لم يكن ثمة سيارات سوى لنقل البضائع فقط، إذ إن أحدًا لم تكن لديه مركبة أو كان في حاجة لها، فقد كان يُمكنك الذهاب سيرًا إلى أي مكان أو عبر وسيلة النقل العام الموجودة تحت الأرض وهي قطار زجاجي كانت رؤيته ممكنة عبر الشوارع الشفافة. جن جنون خوليو بالطبع بمسألة القطار الزجاجي ولم يتوقف عن التحديق فيه والإشارة إليه. شرحنا للأستاذة أن خوليو لا يتحدث أبدًا لكنه يفهم كل شيء تقريبًا بصورة جيدة، وبالمثل أنه لم يكن أصم أو غبيًا. لقد أخبرتنا المرأة أنه ما من مشكلة في هذا كله، إذ إن لديهم أيضًا أطفالًا عميانًا بل وحتى طفلًا متأخرًا عقليًا في المدرسة وأن تعليم كل صغير يجري وفقًا لاحتياجاته واستنادًا لقدراته، ثم أضافت أن خوليو يبدو لها شديد اليقظة والذكاء، لذا فهي واثقة من إمكاناته ومستقبله المشرق، ما غمرنا بالفخر رغم أنه لم يكن ابننا وبالتالي لم يرث أيًا من هذه

المميزات منا. لقد تركتها تتحدث في المدرسة، فثقافتها وجاهزيتها أفضل مني، ومع ذلك أدركت أن المكان جميل وأن كل المدرسين يبدون غاية في الطيبة، كما أن الطلاب يتصرفون بصورة رائعة، يحيونك بـ«صباح الخير» إن التقوا بك بل ويفسحون مجالًا للعبور فيما بينهم؛ يلعبون ويغنون ويتسلقون الأشجار الوارفة، ومنها أشجار الكمثرى والتفاح والبرتقال المثقلة بالثمار، وكذا أشجار الصنوبر والدردار الضخمة ذات الأفرع القوية. إن وجه الشبه بينها ومدرسة القرية كان معدومًا، إذ كان بها حوض سباحة ومنشآت رياضية كالألعاب الأوليمبية القديمة. لم أر في حياتي صراحة شيئًا قد يشبهها. بعد تفقدنا لكل شيء وتمني التوفيق لخوليو في يومه الدراسي الأول، رحلنا نحو العمل دون أن نتوقف عن ذكر الروائع التي شاهدناها، إذ كان كل منا سعيدًا بالتحقق من الرعاية التي سيتلقاها خوليو خاصتنا.

تركتها عند المكتبة. بناء عظيم وجميل وزاخر بالكتب وبالمثل بقوم يقرؤون داخله فوق طاولات طويلة. لم أر في حياتي قط مثل هذا العدد يقرأ في الوقت ذاته، وبالمثل هي، لذا لمعت عيناها حين أبصرت الأمر وحدثتني من جديد عن مدى إعجابها بهذه الوظيفة. شاهدتها عبر الحوائط الزجاجية وهي تدخل واندهشت من المودة التي حياها بها بقية العاملين، خاصة وأنها قد بدأت للتو. لقد استقبلوها بين قبلات وأحضان لدى وصولها، خاصة شابًا صغيرًا وسيمًا متباهيًا بعض الشيء لم يرق لي منذ وقعت عيناي عليه، إذ بدا لي أنه يتخطى الحدود في مجاملاته مع سيدتي، إلا أنني حاولت إزاء تعجلي في نهاية المطاف ألا ألقي بالًا، وتوجهت نحو مصنع إعادة تدوير الفضلات الجسدية للاهتمام بمشاغلي.

لم يرق لي تركها هناك في صحبة أمين المكتبة المفترض هذا، بل ولو كانت الأوضاع مختلفة لأخرجتها من هناك في ظرف لحظة، لكن لو فعلتها في هذا العالم لبدوت كفلاح غليظ الطباع، لهذا لم يكن بيدي حيلة. إن

المرء قد يضطر أحيانا لانتظار حدوث الأمور مهما تزايد حدسه عن قرب حدوثها، لأنه لو فعل العكس، لأصيب بالجنون.

كانت الوردية نسخة طبق الأصل من اليوم السابق باستثناء مزحة المستجد وانضمامي للنقابة. حينما ظهر ممثلو النقابة في الاستراحة لم أعرف من هم، إلا أن الزملاء شرحوا لي على الفور أن مسألة الانخراط حرية شخصية، لكنها ملائمة، فكل من يعمل بهذا المصنع على الأقل قد صار نقابيًا. جلس مسؤولو النقابة معي بينما أتناول طعامي وشرحوا لي كيف هي منظومة العمل، وبالطبع هي مسألة كنت مهتمًا بها للغاية، إذ إنني لم أكن أفهم بعد أي حكومة تدير هذه الشركة أو المدينة، بل وكيف يجري تنظيم كل شيء، فأنا في النهاية لست غبيًا لأحسب أن كل الأمور تجري بمثل هذه الفاعلية هكذا بمفردها أو بمفعول السحر. في حياتي السابقة، لم أكن قط رجلًا يحب المشاركة أو الانخراط مع آخرين سواء للدفاع عن ذاتي أو لمهاجمة أحد، فقد كنت أفضل أن أعتني بنفسي بنفسي. لم أثق في أحد وأنا عامل باليومية، سواء زملائي أو رؤسائي، وتعلمت أن المجهود هو مفتاح الفوز بكل شيء، وأن الاحترام يُكتسب لا بالتململ بل بقصم ظهرك من العمل. راعيت مصالح الملاك وأنا رئيس للعمال دون إساءة لمن هم تحت إمرتي، وحينما صرت في النهاية صاحبًا للأرض سعيت لرعاية ممتلكاتنا عبر الشدة دون نسيان العدل؛ لم أتأخر لو كانت ثمة حاجة لمكافأة أحدهم على مجهوده، وبالمثل لم أتردد عن ملاحقة أي كسول أو لص إن استدعت الحاجة، إلا أن كل هذا يخص المزارع، التي دومًا لها مالك، أما هنا -كما شرحوا لي- فما من ملاك، فنحن نعمل لصالح أنفسنا وبالتالي فإن القرارات يجب أن تصدر منا. لم تكن ثمة منفعة سوى للمدينة بأكملها وكل شخص يلتزم بمهام لوظيفته من أجل المصلحة العامة وليس الخاصة، وما

من راتب أو شيء مثله -كما سبق وخمنت حينما لم أر متاجر أو شيئًا للبيع- لأن المدينة توفر لكل شخص ما هو ضروري، بل إن النزوات والملهيات كانت مسؤولية المدينة، أو بمعنى آخر نحن، أي المواطنين، وحسبما فهمت، فما من زعيم أو رئيس أو ملك بل وما من أفضلية لأحد على الآخر. خطر لي الاستفسار عما يحدث لمن يرفضون الانضمام للنقابة، فقالوا إنه ما من شيء يحدث لهم، فهذا خيار يُمكن احترامه بل وله احترامه، إلا أن قلة فقط هي التي لم تتخذه، فقد كان يعني البقاء خارج دائرة اتخاذ القرار، أي أن غير النقابيين بعدم انخراطهم يظلون على هامش القانون وبعيدًا عن واجب رسم المصير المشترك.

فهمت كل الأمور بصورة جزئية ونتيجة لانعدام الثقة الذي فُطرت عليه، تخيلت أن ثمة شيئًا مريبًا في المسألة وأنه من غير الممكن أن تكون الأمور كلها نزيهة وعادلة كما يقولون، إلا إن كان من يعيش داخل المدينة الشفافة أناسًا من فصيلة مختلفة عن تلك التي عرفتها خارجها، ولأن هذه المسألة مستحيلة وقعت الأوراق وانخرطت في النقابة دون حماس مفرط، فإن كان ثمة ما أعرفه فهو أن البشر بشر ومتشابهون في كل الأنحاء. هذا صحيح.. توخيت الحذر كثيرًا لكيلا يلحظوا شيئًا، ولم أتفوه بما فكرت فيه أو خشيته ووقعت. بالطبع وقعت! لقد توصلت إلى أنه ما من مفر، فحينما يكون أحدهم هو آخر الواصلين لمكان، لا يمكنه أن يقلب الأمور رأسًا على عقب، لكنني اعتزمت العثور بمرور الوقت على بعض من غير النقابيين هؤلاء لأعرف ما قد يقولونه عن تجربتهم المهنية، التي أجزمت أن بها اختلافًا ما. حياني مسؤولو النقابة بالشد على يدي ورحلوا وأنهيت غدائي ثم عدت للجرار. إن كمية صناديق الفضلات التي جررتها يوميًا كانت واحدة، كما أن سرعة الجرار نفسه كانت مُعدة مسبقًا، لذا لم يكن ثمة

شيء لتفعله بشكل جيد أو سيئ، بكفاءة أعلى أو أقل، بتوفيق أكثر أو أقل في هذه الوظيفة خاصتي، التي -كما سبق وقلت- لم تكن قاسية، لكنها مملة، خاصة في ظل قلة مهامها، أو بالأصح انعدامها. لقد نسيت الاستفسار من مسؤولي النقابة إن كان يحق للمرء اختيار وظيفته أم أن عليه الرضا بتلك التي منحوها له، أو إن كان ثمة مجال لتغييرها في وقت ما، أم أن عملي في سحب صناديق الفضلات بسرعة ثابتة سيظل قائمًا إلى أبد الآبدين. سابقًا وأنا أرعى الأرض والمواشي -سواء كنت أتلقى أجرًا أم أدفعه- كنت أتطلع على الأقل للسماء، وإن غاب المطر انتظرته، وإن انهمر ليغرق كل شيء، نزحناه واستنضبنا الحقول ووضعنا أكياسا ترابية لحماية البستان، وإن وُلد حصان جيد ربيناه ودللناه حتى بيعه، وإن وُلد مريضًا ضربناه بالنار، وإن هجمت الذئاب على الدجاج أخرجنا البندقية وهلم جرا، إذ كانت ثمة أمور يُمكن أن نفعلها وكنا نعرف كيف نفعلها، وكان رزق المرء ونصيبه يعتمدان عليه، أما هنا -فكما بدأت أدرك- فلا فارق إن قدت أنا الجرار أم هذا الذي بجانبي، وما في السماء من شيء قد يخبرنا كيف سيكون هذا اليوم أو الشهر أو الحصاد أو الرزق.

بعد انتهاء الوردية والتحمم جيدًا، مضيت لأتنزه قبل العودة للمنزل. لم أكن أعرف المدينة جيدًا وهو أمر منطقي، إلا أنني قررت تفقدها لأن مسألة التيه فيها قد بدت صعبة. لم تمر سوى فترة وجيزة على وصولنا هنا، لذا من الأفضل في نهاية المطاف أن أرى الأشياء بأم عينيّ دون أن يشرحها لي أحدهم باستمرار. لقد قررت باختصار أن أتجول كسائح وخطر لي -ولأي سبب قد أنكر؟- أنني قد أجد حانة ما هنا لأحتسي جعة باردة أو كأسًا من النبيذ، لأنهم لم يضعوا لي شيئًا من هذا أو ذاك في البراد الزجاجي. سرت أحدق في كل شيء باهتمام والحقيقة أن الاعتناء بالمدينة وجمالها كان هائلًا،

وكذا نظامها الذي كان بصورة لم تسبق لي رؤيتها قط، إلا أنه لم يكن ثمة اختلاف طيلة الوقت، فالبنايات الموجودة في كل شارع متطابقة، وكذا ملابس الناس، التي كانت واحدة لكن مختلفة، فقد ارتدوا دومًا قمصانًا وسراويل خفيفة اختلفت فقط في مسألة اللون، وهذا أمر ينطبق على الرجال والنساء، إذ إنه ما من وجود للتنانير هنا على ما يبدو. هو أمر مؤسف حينما لا يرى المرء سيقان الفتيات!

ما كان غريبًا حقًا، أو بالأصح ما بدا غريبًا بل وشديد الغرابة -على الأقل بالنسبة لي- هي مسألة احتشام الفتيات الشديد في الشارع وقدرتك على أن تراهن عاريات حينما تنظر للبيوت عبر نوافذها، سواء كن يتحممن أو أثناء تغييرهن لملابسهن أو وهن في دورات المياه أو ببساطة وهن في وسط الشقة، إذ إن بعضهن كان يمارس الرياضة دون ارتداء شيء يُذكر تقريبًا. قد يرى المرء في وقت قصير بالمدينة الشفافة أناسًا عِدة كما جلبهم الرب إلى هذا العالم أكثر مما رآه طيلة حياته خارجها، لكن في الشارع -كما سبق وقلت- فإن جميعهم وجميعهن كانوا يسيرون بتحفظ واحتشام كأنما يسعون لتجنب لفت الانتباه. باختصار.. إن مفهوم الحياء عند هؤلاء القوم كان عبثيًا نوعًا ما.

كنت أفكر في هذا وأنا أسير، وبالمثل في العثور على حانة السعد هذه التي لم تظهر، حتى صادفت وجهًا مألوفًا. كان شرطي المنطقة، ورغم أنني لم أكن له مودة خاصة، إلا أنني سعدت حقًّا سعادة جمة بمقابلة شخص أعرفه من الدائرة القديمة، التي بدت كأنها حياة أخرى وعالم آخر، حتى وإن كنا قد تركناها منذ عدة أيام. اغتبط شرطي المنطقة قدر ما اغتبط من التعرف عليّ، لدرجة أن عناقًا وُلد بيننا بصورة عفوية. لقد قال لي إنه يجب علينا «ترطيب» هذا اللقاء، ما كان وقعه على مسامعي كأن السماء تدق

أجراسها، فاعترفت له أنني أبحث من فترة عن حانة، فقال لي: عِز الطلب! ورافقني إلى مكان -لولا بنيته الزجاجية- لبدا كحانة طبيعية وشائعة في أية قرية، وبمجرد دخولنا قدموا لنا جعة مُثلجة، ويجب أن أقول إنها كانت ألذ جعة شربتها في حياتي، أو هكذا بدت لي -رغم عدم وجود أي علامة تجارية عليها- ربما لأنني شرعت أفكر في أن كل من في هذه المدينة -بخلاف قِلة غريبة- كانوا قد أقلعوا عن الكحوليات، لكن دعونا من كل هذا فالجعة كانت لذيذة ومجانية ولديهم منها كل ما قد يعوزه المرء، أما الحانة فتدب نشاطًا برجال ونساء يتسامرون في هدوء وهم يمزحون ويضحكون. حانة كما يأمر الرب! كم من ضحك ضحكناه أنا وشرطي المنطقة! ثمة معجزة قد منعتني من السقوط من فوق المقعد مرتين، إذ إنني في الدائرة وفي ظل موضوع الإجلاء وبالطبع مع الحرب فوقنا ومن حولنا، لم أتمعن في مدى ملاحة هذا الرجل. لقد اعتذر بنفسه -حتى وإن لم يكن في حاجة إلى ذلك- عن أسلوبه السابق، فجدية الوضع والمسؤولية الملقاة فوق كاهله قد لجّمته، إلا أنه في الحقيقة وفي هذه الوضعية الأخرى، كان رجلًا شديد المرح يتعامل بأقصى درجات الشفافية واللطف، بل وخفيف الظل أيضًا لدرجة أنني مع النكات التي سمعتها منه، صرت كمن لم يسمع نكاتًا من قبل. أنا بليد جدًا في مسألة النكات ولا أعرف سبيلا لإلقائها مرة أخرى، إلا أنه قال لي واحدة عن زوج عاد لمنزله ليجد امرأته في الفراش مع حصان كادت أن تقسمني لنصفين من شدة الضحك. ليتني أتذكرها بالضبط لأن القصة بها خدعة فيتحدث الحصان في النهاية ويظهر أنه محام في جامعة مرموقة وأشياء أخرى قد تاهت عن بالي، لكنها كلها شديدة الطرافة. مع الجعة الخامسة، كما هي العادة، وبينما نتحدث عن الدائرة وكيف غدا كل شيء يخصنا، اكتسينا سريعًا بشيء من الجدية وربما بعض الحزن.

شرعت أسحبه من لسانه، لأنني تخيلت أنه بحكم وظيفته -أو وظيفته السابقة كشرطي- سيكون أكثر اطلاعًا مني على سير الأمور. لم يتردد الرجل، الذي كان وقتها يعاملني كأنني صديق حميم، في البوح بما لديه ولم يبد لي كمن أخفى عني شيئا أو يظهر لي سببًا لأشكك في كلمته. إن ما يجمع أبناء دائرة واحدة عند لقائهم في مكان غريب أمر مثير للفضول، إذ أعتقد أن كلينا قد اعترف للآخر على مدار ستة أكواب من الجعة أكثر مما أظن أنني قد اعترفت به لنفسي منذ أبلغونا بعملية الإجلاء وقراري دون إبداء ممانعة بهجر ما كان حتى هذه اللحظة أرضي وحياتي. لقد قص على مسامعي كيف قد شق عليه إخراج الناس من الدائرة، وبالأخص ترك كل من لم تختم الحكومة أوراقهم تحت رحمة الأعداء، بل إن الرجل كاد ينفجر في البكاء حينما تذكر نساء وأطفال الغجر، أو المشتبه بهما اللذين لم يصدر أمر بإدراجهما في عملية الإنقاذ، واستغلالًا لصراحته تجرأت على سؤاله عن «صاحبي الماء» واعترفت له بمدى اندهاشي برؤيتهما معلقين بالمقلوب عند مدخل المدينة، وذلك رغم تصرفهما البائس معنا خلال رحلتنا الوجيزة، وبأنني بالمثل قد سمعت شائعات الخيانة التي تلاحقهما. لقد قال لي إنهما يستحقان المصير الذي آلا إليه، فقد كان مُثبتًا في الدائرة كلها كيف تلاعبا بأسعار الماء دون الاهتمام بعطش القرية، بل وإنهما قد حاولا نزح الماء من سدهما لرفع السعر حينما سيطرت الحكومة المؤقتة والعدو على الدائرة والبلد بأكملها، وأن مسألة تنشيط جهاز (ريست) لم تكن شائعة، فطائرا الشؤم هذان سعيا لدخول المدينة كحصاني طروادة، ألا أنه أضاف بالمثل أن رؤيتهما معلقين قد أثارت غثيانه، رغم أنه حرر بنفسه تقرير تجريمهما الذي قاد بهما إلى حتفهما. كان جليًا أن الرجل قلبه طيب ولم يكن يشتهي الدور الذي لم يختره لنفسه وأجبره على مثل هذه القسوة، واتضح بالمثل أنه لم يكن يتفق مع قرارات الحكومة، لكنه رغم

ذلك لم يجد بدًّا من تطبيقها بحذافيرها. لقد حدثني أيضًا عن خشيته من عصيان الأوامر التي أصدروها له لاحقا، إذ إن كتائب للإعدام -كما قال لي- انتظرت أن يفكر أحدنا أو هو نفسه في المقاومة أو التشكيك في خطة الإجلاء. يبدو أن هذا هو ما حدث في البلد بأكمله، فخسارة الحرب كانت مُسلمًا بها منذ فترة، وهذه الخطط جرت على قدم وساق -دون أن يدري أحد- منذ أكثر من عام، وقد تجهز الجيش في صمت كإحدى تبعاتها. أما مسألة إن كنا نحن الآن جزءًا مما كنا ندعوه سابقًا العدو، فقد أكد لي أنها صحيحة، لكن تم إخفاء هذه المعلومة بحرص كبير لتفادي ثورة الوطنيين -إن كانوا موجودين- وبالمثل مسألة أن الحكومة المؤقتة هي في الواقع قطاع قد انشق عن الحكومة الدائمة وخان عَلَمَنَا ليوقع مع العدو على شروط الهزيمة والاحتلال اللاحق لها. أخبرني أيضا -والحق أنني قد اندهشت- بأن بلادنا كانت في الحقيقة من بدأ العدوان والمذنب الحقيقي في الحرب الأخيرة، وأن بقية العالم أو من كنا ندعوهم أعداء هم في الحقيقة حلفاء من أجل الحرية، فبلادنا هي من تصرفت بسوء نية منذ البداية بتخطي حدودها لتضم عبر القوة جزر بحر الشمال وترسي مستعمراتها في أراض قد سرقتها من الدول المجاورة في الدلتا. باختصار.. إذا ما قسمنا موضوع الحرب برمته لنُبسط الأمور إلى معتدين ومعتدى عليهم، أو ببساطة أكبر لطيبين وأشرار، فنحن كنا الأشرار في هذه القصة. لقد قص عليّ بإيجاز جرائم ضد الإنسانية ارتكبها جيشنا: عمليات إعدام بالرصاص في معسكرات اللاجئين، طرد المعارضين وملاحقة الغجر المنهجية، الغارات الغاشمة على قرى المدنيين، حوادث الاغتصاب والتمثيل بالجثث والمقابر الجماعية.

شعرت بأسى كبير مع إدراكي لكل هذا، وأسفت على ترك ابنيّ يرحلان لتلك الحرب، وكذا بغضب أكبر بعدما أدركت متأخرًا أنني ابتلعت الدعاية الملعونة التي قدموها لنا فوق طبق من خزف دون معارضة

أو أسئلة. لقد شعرت بأحشائي تثور داخلي من شدة الاشمئزاز، فإن المرء لا يقيء قمامة إلا حينما يأكل قمامة، وفكرت في الفخر الغبي الذي شعرت به من أوسمة الولدين، وفي أنهما ربما يكونا قد لقيا حتفهما الآن أو تعرضا للأسر، وكل هذا الخدمة قضية فاسدة، وندمت على جلبهما لهذا العالم في المقام الأول، ولجلبهما لهذا المكان من العالم في المقام الثاني هكذا بكل حماقة. حينما رآني شرطي المنطقة السابق مغمومًا بهذه الصورة، شرع يشجعني على الفور ويخبرني بأننا جميعًا قد ابتلعنا هذه الخدعة وألا أحمل نفسي أي ذنب، فقد كذبوا علينا جميعًا بصورة مثالية تجعل من لم تمر عليه الكذبة يبدو كمجنون. تحسنت من الإنصات لحديثه، لكن في الحقيقة إن لكل منا قدرة على التفكير بنفسه، ولعنت نفسي لأنني لم أستغلها بصورة أفضل. قال لي إنني لو قمت بهذا في حينه، لو شككت في الدعاية الفعالة للدولة، لغدا مصيري المحتوم هو الإعدام رميًا بالرصاص لأجد بجواري -في مقبرة جماعية بلا صلبان- ابنيّ وزوجتي. لقد أقنعني شرطي المنطقة السابق بعبارته الأخيرة التي عثرت فيها على عزاء، أو على الأقل شيء حقيقي قد أتوارى خلفه وأواسي نفسي، إذ إن المرء يمكنه التمرد ضد الشرور بسبب أفكاره أو معتقداته أو شجاعته، لكن ما من رجل كامل قد يضع أهله في دائرة الخطر مهما كان المبرر. تراجع نسق محادثتنا، كما هو متوقع بعد كل ما قصصته، ولم يبق شيء من ضحكاتنا بالكاد أو أثر لها، لكن بما أن الجعة كانت مجانية فعلنا ما في وسعنا لكيلا نرحل عن الحانة الزجاجية كمن كانوا في عزاء أو -الأسوأ من هذا- كمن دفنوا ميتًا، فهذا هو ما ارتسم على مُحيانا من قص هذه المآسي ومواجهة بعضنا بعضًا بهذه الإحباطات، لهذا طلبت منه كأحمق أن يلقي عليّ مجددًا نكتة الحصان، هذه النكتة التي كان الحصان فيها محاميًا وعثر رجل مسكين عليه مع زوجته في الفراش. لست في حاجة لقول إنها في تلك المرة الثانية لم تضحكني حتى ولو نصف ما أضحكتني في المرة الأولى، بل إنها

بدت لي ثقيلة الظل وربما مؤلمة. إن أكثر الأمور عقلانية عند تبدد السحر وانهيار الوضعية القائمة هو الفراق، لكن في نهاية الليلة -وهو مجرد قول لأن الليل لم يحل قط على هذه المدينة- يتشجع المرء على التمسك بآخر أمل، وهكذا تأتي كؤوس الجعة الأخيرة، تلك التي تجلب معها آثار ما بعد الثمالة وليس الفرح، تلك الكؤوس التي ما من فائدة لها في الحقيقة سوى أنها تثير استياء زوجتك فتحصل على مبررات كافية لتأنيبك.

خرجنا في النهاية نترنح أو شبه نترنح، كأننا مراهقان أمردان، وانتهى بنا الأمر نبول في الشارع، الذي لم يتشبع بما خرج منا لأنه كان زجاجيًا بالكامل، وظل كل شيء هناك على الأرض لكي ينزلق أي شخص فوقه. بركة صغيرة تثير الخزي من مجرد رؤيتها. امتعض من رأونا، وكيف لغير هذا أن يحدث؟ كيف لن يرونا في مدينة شفافة لا ليل فيها؟ وشعرت مجددًا بكرب فظيع، تمامًا كما اعتدت أن أشعر في كل مرة ثملت فيها في حياتي السابقة، إذ إنني حينها أيضًا لم أكن متمرسًا مع صب الكحول في جسدي والسير بعدها مستقيمًا كأن شيئًا لم يحدث، كهؤلاء القوم الذين يقولون إنهم يعرفون كيف يشربون، والذين بالمناسبة ولأتحلى بالصدق لم أعرف أحدًا منهم قط.

ودعنا بعضنا بمودة -أنا وشرطي المنطقة- رغم النهاية السيئة التي آل إليها لقاؤنا، بل وإننا أقسمنا على تكراره. لم نتبادل أرقام هواتفنا، لأنه لم يكن ثمة هاتف في منزلي وأظن أيضًا في بيته. ما فعلناه حقًا هو الاتفاق على تناول العشاء معًا يوم الأحد القادم، وأدركت فورًا وأنا أقولها -رغمًا عن سُكرتي- أنني لم أعرف في أي يوم نحن، وبالمثل إن كانت الأيام في هذه المدينة تُحتسب كما هو الحال في الخارج، فأكد لي الأمر؛ أن الأسبوع أسبوع كما هو لكن ما من قداس فيه، ما أسعدني لأنني -رغم إيماني بطريقتي الخاصة بالرب- لم أفهم قط السبب وراء تكرار القداس أسبوعيًا في الساعة نفسها

والمكان نفسه، خاصة مع افتراض أنه -أي الرب- قد قال إنه موجود في كل زمان ومكان. ودعنا بعضنا بعناق طويل -عناق بتلك الطريقة التي يتبعها الرجال وهم سكارى- بعد الاتفاق على موعد الأحد وتأكيده، ثم انطلق كل منا -أو على الأقل أنا- في مهمة العثور على منزله.

تركت الشرطي السابق عند ناصية، وانعطفت في الاتجاه المعاكس لكيلا أسير خلفه وليس لأنني أعرف طريقي؛ فإن كان قد بدا لي في وقت سابق أن تحديد مكاني مهمة سهلة، فتحت تأثير الجعة وحيرتها لم أفلح في معرفة أين أنا. لقد بدت كل الأشياء متطابقة لدرجة أنني عجزت عن تفهم الكيفية التي يعثر بها قوم هذه المدينة على ما يخصهم، واضطررت للف والدوران مائة مرة تقريبًا حتى رأيت عبر الحوائط الشفافة زوجتي تجلس ومُحياها يقول إنني سأعرف لاحقًا كم هو ثُلث الثلاثة! أشعرني هذا المشهد بالخوف والعزاء في الوقت ذاته؛ الخوف مما ينتظرني والعزاء لأنني عثرت في النهاية على بيتي. شرعت أهندم نفسي في المصعد، بل إنني ملست شعري قبل فتح الباب في محاولة متأخرة لتصفيفه بأي صورة كانت رغم أنني عرفت -ربما لأنني أراها- أنه ما من طريقة في هذا العالم الشفاف لإخفاء أي شيء ولو للحظة، لدرجة أنه ما من حاجة لفتح أية أبواب لترى سيماء التجهم على وجه أحدهم. لم تصرخ أو تطالبني بتفسيرات لأن الطفل نائم. قالت فقط إنها شعرت بقلق فظيع من تأخري وإنه من الأفضل أن نذهب للفراش، فقد تأخر الوقت لدرجة سنصل معها للعمل دون الحصول على راحة كافية. طسست وجهي ببعض الماء في الحمام الشفاف. فعلتها بجوار رجل آخر، أقصد جاري الذي يحاول التغوط دون نجاح، ثم مضيت نحو الفراش بجسد منهك دون تناول العشاء. ولأن دوام الحال ليس بمحال، لم تستحق العربدة التي مارستها الأسى الذي تلاها، وبينما أنعس أقسمت أنني لن أكرر المسألة، مهما كانت كمية الجعة المجانية المنعشة في هذه المدينة عديمة

الجدران، ومهما احتجت بين الفينة والأخرى إلى تذكر كيف كانت الحياة قبلها. إن كنت لم أُقبلها في تلك الليلة، فكان لكيلا أضايقها برائحة أنفاسي، وليس لأنني لا أحبها، إذ إنني ومن فرط اعتيادي على حياتي السابقة، نسيت للحظة أنه ما من رائحة لشيء هنا. أعتقد أن الخوف يُتنزع من المرء بصورة أبطأ من الرائحة، أو أنه ربما لا يُنتزع.. أبدًا.

لقد تأخرت في الاستيقاظ صباحًا بسبب آثار ما بعد الثمالة، فيما غادرت هي والطفل قبلي من المنزل. تلكأت عمدًا -ولأي سبب قد أنكر؟- لكيلا أراهما أو بالأصح لكيلا يرياني، ومع وصولي للعمل سعدت نوعًا ما بامتطاء جراري وسحب قطاري الصغير من الفضلات دون أن يشغل أحدهم باله بإن كنت قد خرجت أو أسرفت في الشرب في الليلة المنصرمة. إن العمل أحيانًا -مهما كانت فظاظته- هو أفضل عزاء لرجل ما من رغبة لديه في الحديث مع أحد أو في إبداء مبررات زائدة عن الحد. حينما حانت الراحة، كنت قد تحسنت ولأن لدي حرية اختيار تناول الوجبة فوق طاولة المقصف الطويلة أو المغادرة بالصينية إلى الحديقة، فقد توجهت نحو الخارج؛ على الأقل لكي أرى الأشجار وأنصرف عن القبو الأبيض، الذي رغما عن شفافيته الشديدة كبقية الأشياء الموجودة في المدينة، كان يقبع في باطن الأرض، فيشعر المرء بالضيق إن نظر للأعلى ورأى كل هؤلاء القوم فوقه. ثمة نباتات ونافورة وشجيرات في الحديقة وحينما ينظر المرء للأعلى يرى القبة، شديدة العلو، شديد اللمعان، تبدو كسماء بيضاء دون أي غيمة، كواحدة من تلك السماوات التي تهدد بتساقط الثلج، لكن -بالطبع- دون أي برودة. تعافيت بالكامل عصرًا وبت مستعدًا للعودة للحانة -لو عثرت عليها مجددًا- لأخذ جعة أو اثنتين، لأكتسب الشجاعة اللازمة للعودة للمنزل. لقد عثرت على الحانة بسهولة أكثر من المتوقع، وحري بي أن أعترف أنني رغم حزني المبدئي من عدم عثوري على شرطي

المنطقة السابق -والذي يُمكنني تسميته صديقي الوحيد- فقد سعدت بعدها كثيرًا بعدم وجوده، إذ إنني تمكنت هكذا من الوفاء بكلمتي وعدت مباشرة إلى المنزل بعد نهاية جعتي الثانية كولد مؤدب.

هي تحبني، لهذا لم تقدم على ذكر الليلة السابقة، وإن كنا لم نتناول عشاءنا في أجواء رائقة فقد كانت على الأقل هادئة. لم ينبس الصغير كما هي عادته ببنت شفة، إلا أنها قصت عليّ كيف عاد من المدرسة بشهادة تهنئة على حسن تصرفه المثالي، وأنه شرع بعدها يحل واجباته حتى أنهاها كلها، ما غمرني بالسعادة، إذ إن ابنيّ الحقيقيين كانا بمثل هذا الاجتهاد وأنا رجل لا يطيق وجودًا للكسل في منزله. توجهت مباشرة نحو الفراش دون التقليب حتى في صفحات أطلسي للحيوانات، ومكثت هي وخوليو لفترة يقرآن كُتبًا حقيقية، وأظن أنني ربما قد سمعتها وأنا نصف نائم تحكي له قصة قبل أن تُلبسه قناع العينين وترقد بجواري على الفراش. إننا لم نتبادل القبل أيضًا في تلك الليلة، لكن هذه المرة كانت بسبب رغبتها، وحينما حاولت البحث عن حرارة رغبتها أسفل الملاءات، أوضحت لي أنها غير راغبة، ما بدا لي عجيبًا، إذ إنها كانت دوما مُتقدة في حياتنا السابقة.

ثمة أمر غريب بات ملحوظًا بيننا، أعني ما كان دومًا بيننا ولنا نحن فقط، ولا أعرف إن كان السبب أنها قد صدتني، أم أنه جراء كل ما مررنا به منذ أضرمت النيران في المنزل، أم من قبلها حينما بات المنزل خاويًا في غياب ابنينا وحينما لم تخرج الأرض ثمارها، أم أنه تبرعم عندما سمحنا لهم بأخذ أحصنتنا ودجاجنا. شرعت أفكر في هذا الهراء لدرجة أنني رقدت لفترة لم أحصها يجافيني النوم والقناع فوق عينيّ. سمعتها على النقيض تتنفس بعمق، كما اعتادت دومًا في نومها، وهو ليس شيئًا مشابهًا للشخير. أنا من كنت أشخر، وبقوة، لدرجة أنني أحيانًا كنت أستيقظ من جلبة شخيري.

لطالما هدأني تنفسها وأيًا كان سبب أرقي -من مشاغل الحياة اليومية وسواها- فقد كفاني فقط الإنصات لها لأنام على وقع تنفسها، لكن الآن وفي هذه المدينة التي لا ليل فيها، وعلى هذا الفراش الذي لم نختره بأنفسنا أو نشتره، ومع هذا الطفل المسروق أو المستعار، ووسط هذه الحياة الشفافة، صار النوم مستحيلًا، بل إنه ومهما حاولت اتضحت استحالته، لهذا تخليت تمامًا عن الفكرة في النهاية ونهضت بحذر لكيلا أوقظها ونزعت قناع العينين وحدقت حولي في الحجرة في ذلك الليل الذي ما من قمر فيه ولا عتمة ولا شيء على الإطلاق وشاهدت كل هؤلاء القوم نيامًا. مئات بل ألوف مؤلفة من الأشخاص المجهولين تنام قريرة العين، وبدا الأمر لي ككابوس مفزع سأعجز عن الاستيقاظ منه سوى بسقوطي في النوم وعودتي للغابة لأعثر في أحلامي على المكان الذي في الواقع الموجود في الخارج أو في واقع الماضي قد دفنت فيه بنادقي. لقد أمضيت ساعات هكذا، جالسًا فوق الفراش جاهلًا ما قد أفعله، فيما تلف وتدور في رأسي أكثر الأفكار شرورًا، وبرغبة جمة في الخروج من هذه المدينة، رغم اعتنائهم الشديد والجيد بنا. وكما هو الحال دومًا مع الأرق غفوت في وقت ما دون أن أعرف متى تحديدًا، لأنها فجأة أيقظتني؛ هذه المرة بقبلة وبإفطار مجهز وموضوع فوق المائدة.

كنت بطيئًا في كل الأمور لأنني لم أحصل على راحة جيدة، خالجني هذا الإحساس الذي يشعر به المرء إن لم يسترح ويبدو كالسير عبر الوحل بأقدام خُلقت من الرصاص. لم أصل متأخرًا عن العمل بفارق ضئيل، ولم أستفق أو يتعدل مزاجي العكر مهما تناولت من قهوة من الآلة. لقد حدث ما كنت أخشاه حقًا بعد انتهاء راحة الوجبة الخفيفة، حينما لم يعد يتبقى شيء يُذكر على انتهاء الوردية: فقدت تركيزي وتقدمت بجراري في وقت غير مناسب وأطحت بالجرار القادم أمامي؛ لقد كان تصادمًا رهيبًا رغم البطء الذي سرنا به. سقطت على الأرض وأطحت بالمثل بالسائق الآخر

وانهال الخراء عديم الرائحة فوقنا. وبخوني بعدها واقتادوني مباشرة للمشرف ومن بعدها لعيادة الطبيب، الذي أبدى قلقه من أرقي ومظهري السيئ وقال لي إن تراكم الضغط في فترات التغير والتأقلم أمر طبيعي، وإنني ربما في حاجة لمستشار. سألته إن كان يقصد طبيبًا للمجانين، وأكد لي أن هذا ليس مقصده، فلا وجود لهم في هذه المدينة وهو بالمثل لا يكن للطب النفسي تقديرًا كبيرًا. أخبرني بأن بعض التقلبات العصبية الطفيفة، مثل تلك التي شكوت منها، تُحال إلى مستشارين، وهم أشخاص مؤهلون بصورة كبيرة للإنصات إلينا بمودة، وبالمثل أن هذا الإجراء أكثر من كاف وينجح بصورة أفضل من تناول الحبوب وجلسات التحليل النفسي وعذابها، وحينها سألته هل هؤلاء المستشارون قساوسة؟ وحينها ضحك وقال لي لا، فما من قساوسة في المدينة ولا حاجة لأحد لوجودهم فيها. أحببت في النهاية معرفة إن كانت مسألة المستشار إلزامية، كنوع من العقوبة على حادثة الجرار فعاد الطبيب الطيب ليمزح بخصوص مخاوفي الكثيرة وأبلغني بأنه ما من عقوبة، بل هو مجرد خيار والقرار النهائي بخصوصه في يدي، وأنه على أي حال سيعطيني قرصًا سيساعدني على الراحة فورًا وإذن غياب لمدة يومين حتى أتعافى بالكامل.

خرجت من العيادة وتوجهت لأبدل ملابسي. شجعني زملاء المصنع وربت المشرف على ظهري عدة مرات كأن الموضوع لا يهم. تمنى جميعهم لي التحسن والعودة سريعًا. لقد جعلوني في الحقيقة أشعر على نحو أفضل، إذ إنني لا أحب التغيب عن العمل ولم أحبه قط، ولست من هؤلاء القوم الذين يمرضون من أقل شيء وعامة أحسب نفسي رجلًا قويًا لا يتهرب من مسؤولياته. إن أحدًا لم يسبق له رؤيتي أتداعى في الأرض، حتى قبل أن تصبح ملكًا لي، فما من حمى أو سعال قد أبعدني عن العمل قط، وإن كانت ثمة حاجة للاستيقاظ قبل صياح الديك، كنت أول من يستيقظ،

وإن استدعى الأمر نقل القمح لصومعته تحت ضوء القمر، لم يرني أحدهم أتثاءب، وفي حرث الأرض لم يكن أفضل عامل باليومية ليتفوق عليّ، بل إنه لم يولد رؤساء للعمال في مثل شدتي وحرصي على مراقبة مصلحة الأراضي ومؤونة المنزل. إن كنت الآن، في هذه الوظيفة البسيطة لجر الفضلات من هنا لهناك -والتي لم تكن أصعب أو أقسى من أي مما قمت به سابقًا- قد تداعيت، فهذا بالتالي ليس ذنبي أو في طبيعتي، بل يرجع لأمر شديد الغرابة لا أعرف ماهيته لأنه لم يحدث لي قط في العالم الذي عرفته. باختصار.. لقد كنت دومًا رجلًا بمعنى الكلمة، يكد في عمله، لا يتملص من أي التزام أو تحميل نفسه فوق طاقتها كحمار لا يشكو، ويأكل من عرق جبينه وأحلامه شريفة. لقد جررت آلاف الأجولة في حياتي السابقة دون أن ألوي فمي، لذا فإن سحب الخراء بالجرار ليس شيئًا يقع خارج إطار قدراتي، وهذا الأنا الجديد الذي يهمل في عمله ويرحل شديد المرض عن ورديته ليس أنا ولا أعرفه ولا يروق لي، فما من وزن قد صعب عليّ رفعه، لا البطاطا ولا القمح ولا الحطب ولا الطحين، بل كنت دومًا قادرًا على فعلها. إن عجزي عن إتمام أي مهمة يشعرني بمديونية مع العالم بأكمله سواء كانت كينونتي كبيرة أم صغيرة.

رجعت للمنزل للراحة ومعي قرصي وإذن الغياب. كانت الشقة خاوية وكذا تلك الشقق الموجودة حولها، وهكذا جلست للمرة الأولى دون أن أرى كل هؤلاء القوم الذين اضطررت لمشاركة خصوصيتي معهم كل صباح ومساء. تناولت القرص ورقدت على الفراش وبعد برهة غططت في نوم عميق.

*****

استيقظت بعدها بيومين وبينما تحضر الإفطار كان خوليو ما يزال نائمًا. سألتني عن حالي وقلت لها إنني دائخ وحينئذ أبلغتني بالفترة التي نمتها وذعرت. عجزت حقًا عن تصديق أنني نمت أكثر من ثمانية وأربعين ساعة متصلة. شعرت بدوار لدى نهوضي إلا أنها ساعدتني بمودة كبيرة حتى وصلت إلى المنضدة ثم أيقظت الطفل بعدها وتناولنا إفطارنا معًا، وبفضل عصير البرتقال والحبوب وبيضتين أخذت أتحسن. كنت جوعان كذئب لكن لم يضايقني الأمر، إذ كان طبيعيًا ومناسبًا. أخذت دُشًّا بعد فطوري، وككل صباح كان جاري يتحمم على الجانب الآخر من الجدار الزجاجي، إلا أن أيًّا منا لم يحيِّ الآخر أو شيء من هذا القبيل، بل كنا نتظاهر بأننا لا نرى بعضنا، والحقيقة أنه من كثرة رؤيتي للناس، أصبح الأمر كأنه ما من وجود لهم، وأفترض أن هذا كان التأثير نفسه الذي أتركه عند الآخرين.

شعرت بنفسي على أي حال أزداد قوة وحماسًا بل وربما سعادة وأنا تحت مياه الدُش، لدرجة أنني دندنت أغنية قديمة من أيام المدرسة لا أدري لم تذكرتها بمثل هذه السرعة، وكذا لاحظت عقب خروجي من أسفل الدُش وبعد ارتدائي لملابسي أن رأسي بات يعمل بكامل وظائفه بل وشعرت بنفسي جاهزًا ومؤهلًا -رغم استيقاظي مرتبكًا نوعًا ما- إذ كانت لدي رغبة كبيرة للعودة للعمل وإثبات أنني قد تعافيت أمام الجميع، أن بإمكانهم إيداع ثقتهم فيّ، أن حادثة الجرار لن تتكرر، أنني لا أفكر في الخروج عن مساري، وأن الخراء الذي تقع مسؤوليته عليّ يوميًا كان في أيد أمينة. لم يكن ثمة شيء سيئ قد يحدث لي أمام مزاجي الجيد، وحظيت بالفعل بوردية لا مثيل لها.

أديت عملي بصورة ممتازة وعلى عكس الأيام السابقة للحادث، لم تبد لي مهمتي مُملة أو متواضعة. إن أي مسألة في هذه الحياة يجب تنفيذها بحذر وعناية، وسحب كومة من الفضلات ليس استثناء. سبق وشاهدت بأم عينيّ ما الذي يحدث بمجرد أن تتهاون -ولو قليلًا- دون أن تضع حواسك الخمس فيما تفعله. لقد تعلمت درسًا: إن من يشكون من العمل الذي جلبه لهم نصيبهم ويفكرون في استحقاقهم لشيء أفضل دون أن يحمدوا الرب، إنما يخفون داخلهم غطرسة خبيثة لا تنمحي منهم طيلة حياتهم. يظن من يتململون دومًا أنهم يستحقون شيئًا أفضل مما يُقدم لهم ويخلقون بشكواهم عالمًا من الجبناء وعديمي الجدوى، كمن يطلب من الأرض أن تخرج ثمارها دون أن يبذل جهده فيها. أنا لم أكن رجلًا يبكي أو يزدري نصيبه ولا أعرف ما الذي قد حدث لي في تلك الأيام الماضية التي سممت فيها نفسي بأفكار ملتوية وقلق ما من مبرر له. الآن -وبعد أن تعافيت- أشعر أنني عدت إلى «الأنا» التي كنت عليها، بل إن هذه «الأنا» أفضل، لأنها أكثر هدوءًا وتركيزًا واستعدادًا لتنفيذ التزاماتها دون مآخذ أو احتجاجات بل -ولماذا لن أقولها- أكثر تحمسًا لما يُقدمه لها الحاضر، إذ بدأ الماضي والمستقبل ينأيان بي عن ظلال الحنين والمطامح الخبيثة، وكلاهما أشبه بيد قادرة على إغراق الإنسان. توصلت بوضوح إلى أن تنفيذي لما أنا منوط به وبشكل جيد وبإصرار سيكفيني ويزيد لأصبح سعيدًا. شكرت الرب على امتلاكي لوظيفة وكذا زوجة مثلها بجانبي، ومسكن لأعيش فيه ولطفل مثل خوليو معافى وسعيد يبقينا في صُحبة، وطلبت فقط من الرب أن يحظى أوغوستو وبابلو -سواء كانا على قيد الحياة أم في عداد الأموات- بنفس لحظة السلام الروحي التي أستمتع بها.

أبدى الزملاء اهتمامًا كبيرًا بي خلال راحة الطعام، إذ سألوا عن حالتي

المرضية القصيرة دون سوء نية وبقلق حقيقي وسعدوا بتعافيّ بصورة كاملة، بل بدرجة أفضل من ذي قبل. مزحنا كثيرًا بود، وتحدثنا عما يتحدث عنه معشر الرجال بينما يأكلون؛ عن العائلة والنساء بل وحتى الصيد، فبين زملائي كان هناك اثنان على الأقل من هواته. إن اليوم من شدة جماله قد بدا قصيرًا، وشعرت وأنا أسفل الدش بضرورة العودة للمنزل لدرجة أنني توجهت نحوه مباشرة فور خروجي، بينما أُصفر وتملؤني الرغبة في معانقتها لدى وصولي وشكرها على كل ما تفعله من أجلي، وبالمثل رؤية الطفل والاهتمام بمدى تقدمه في المدرسة. لقد أدركت أنني منذ وصولي لم أول خوليو الاهتمام الكافي وكذلك افتقادي للعب معه ورؤيته يضحك، وهكذا قررت إصلاح الأمر. قطعًا، لم تمر حتى في رأسي مسألة التوقف عند الحانة، ولم أفهم أنا نفسي عن أي شياطين كنت أبحث هناك في تلك الأيام الماضية، ولا هي ماهية الآلام التي رغبت في إغراقها في الجعة، إن كان ليس لدي شيء منها في الحقيقة. إن الطريقة التي تأتي بها الأفكار واضحة -حينما يكون المرء في حالة جيدة- هكذا دون ألاعيب ومتاهات لأمر مُذهل، وكذا الكيفية التي تتخذ بها المشاعر بوداعة من صدره عشًا لها، لتبقى هناك جميلة وقوية فينمحي الخوف. باختصار.. كنت في حالة أكثر من جيدة، جيدة جدًا. كنت سعيدًا وتفيض مشاعري، وهكذا تساءلت أي قُرص شيطاني هذا الذي أعطاه لي الطبيب. واصلت سيري في الشارع متحمسا من فرط هذه السعادة الهائلة التي طارت بي وأنا عاجز عن فعل شيء لكبحها، لدرجة أن عظمة هذه السعادة واتساعها وعدم وجود مبرر لها على الإطلاق -ولأي سبب سأنكر!- قد بدأ يُضنيني.

*****

حينما وصلت للمنزل، كانت قد جهزت لي مفاجأة صغيرة، فثمة ضيوف على العشاء. حسنًا.. في الحقيقة كان ضيفًا واحدًا، هذا الفتى حسن القوام الذي رأيته في المكتبة العامة حينما رافقتها في اليوم الثاني. لم أكن مضطرًا لانتظار انفتاح الباب لكي أراه، إذ إنني رأيتهما هما الاثنين عبر المصعد؛ أقصد هذا الوسيم وهي تمزح معه بكل أريحية بينما تُجهز المائدة. رأيت -لأنني عجزت عن سماع ما يقولانه- أن علاقتهما باتت جيدة بعد أن خلقا أواصر بينهما في العمل. حاولت التبرم ولو قليلًا أمام كل هذه المودة بين هذا الفتى وزوجتي، إلا أنني عجزت، بل وعثرت في مكان الشعور الذي بحثت عنه على شعور آخر سخي وغير مناسب؛ إذ اغتبطت في أعمق أعماقي -دون قدرة مني على المقاومة- من رؤيتها بمثل هذه السعادة في رفقة رجل آخر. قَدَّمَته لي مع دخولي للمنزل، ورغم أنني سبق وسجلته في قائمتي للمشتبه بهم حينما رأيته، إلا أنني لم أقدر على النظر نحوه بريبة كما كانت نيتي، بل رسمت أمامه على وجهي أوسع وأصدق ابتسامة ومنحته عناقًا صادقًا وقلت له إنه في منزله، رغم انتظاري ألا ينسى أنه بالمثل منزلي.

ركضت بعدها لأعانق خوليو، وجلست على الأرض لألعب معه وأمازحه بألف طريقة، وفيما أستمتع أنا وصغيري واصلت هي وصديقها تحضيرات العشاء ليشع انبهارًا بها بمرور الوقت. خشيت جدًّا أن تكون هي كذلك بالمثل، إذ إنهما لم يضحكا فقط على كل ما يقولانه كأنه أظرف شيء في العالم، بل بحثا عن أي عذر ليحف كل منهما بالآخر. لا أقصد أنهما فَرَكا بعضهما أمام عينيّ. لا، بل إنهما قد استغلا أقل فرصة ليربت كل منهما

على كتف الآخر، ليُبديا إيماءة، أو مثلًا ليتقاربا أزيد من اللازم لدى تقطيع الخس لتجهيز السَلَطة؛ بمعنى آخر: هذه الأشياء التي بمفردها لا تقول شيئًا، إلا أنها معا تتحدث عن تواطؤ واضح للعيان. اندهشت من قصر الفترة التي استغرقها الأمر ليصبحا صديقين بمثل هذه الصورة، زميلين بمثل هذه الصورة، أو أيًا كان ما هما عليه بمثل هذه الصورة. وددت العثور داخل رأسي على رغبة في كسر قدمي هذا المتباهي، إلا أنني عوضًا عن هذا تفاجأت بنفسي أفتح زجاجة النبيذ التي جلبها كمجاملة وأصب الكؤوس أيضًا بنفسي؛ في كأسه وكأسها، وقليلاً منه لي، لأجلس بعدها على المائدة وأنصت بكل الاهتمام الموجود في العالم لهذا الشاب المتأنق، الذي بدا لي -رويدًا رويدًا ورغمًا عني- ذكيًا ومهذبًا بل وساحرًا بصورة لا تشوبها شائبة، وعليّ ألا أنسى بالمثل طريقة تعامله الجيدة مع الأطفال، إذ إن خوليو لم يفارقه طوال العشاء، وأظهر له بعد نهايته أعماله ورسوماته، وأمام الألف مدح وثناء الذي أغدقه الشاب الذي لا تشوبه شائبة على الطفل، فقد تحمس الأخير لدرجة أنه رسم لوحة مُفصلة لهذا الملعون أسفرت عن تشابه مذهل، فخوليو كان فنانًا بمعنى الكلمة. أهداه الولد اللوحة الصغيرة ويا ليته كان قد أخذها معه لمنزله، إذ إنها قد خطرت لها فكرة تثبيتها بشريط لاصق فوق البراد لتبقى هناك. بعدئذ كنت أحمق بالصورة الكافية لأنتحي بالطفل جانبًا لننشغل فوق الفراش بأطلسنا للحيوانات، فيما ظل الشاب وزوجتي جالسين على الأريكة يتحدثان عن الكتب وآلاف الأمور المهمة بكل ثقافتهما التي لم أفقه فيها شيئًا.

وضعت الطفل بنفسي في سريره الصغير في لحظة مغادرة الشاب الأنيق والألمعي، ثم ذهبت لأمنحه عناقًا آخر ربما كان أكثر صدقًا من ذلك السابق، وأسوأ شيء هو أنني مع خروجه في النهاية من الباب مكثت

أنظر نحوه كأبله بل وعجزت عن كبح نوع ما من الحزن، فقد كان شابًا لطيفًا يُضيء حضوره المجرد المنزل ويجعلك تشعر بالسعادة والراحة، حتى وإن ظل يغازل -أو هكذا بدا الأمر لي- زوجتي طيلة الليلة بل ويتملقها بصورة بدت معها كأن عينيها ومسامعها باتت له وحده. باختصار -وفي ظل عجزي عن مقاومة الأمر- شعرت بأنني سأفتقده بينما كنا نراه يهبط في المصعد وهو يهز يده كإشارة ودودة على الوداع، وهي الإشارة التي رددت عليها بتحريك يدي دون أن أرغب في فعلها، بل وإنني فاجأت نفسي حينما سألتها متى ستُكرر دعوته مجددًا بل وأخبرتها بأن شابًا شديد الروعة مثله يستحق أعمق أشكال الصداقة منَّا، بل وإنني أكاد أطير من السعادة بعثورها على زميل مثير للاهتمام وبمثل هذه الاستقامة لتتشارك معه ورديات العمل الطويلة في المكتبة. لماذا تصرفت بهذه الطريقة؟ ولماذا فعلت ما فعلته؟ ولماذا قلت ما قلته؟ بل وأكثر من هذا كيف شعرت بما شعرته؟ كل هذا بمثابة لغز بالنسبة لي! وأسوأ ما في الأمر هو أنني رغم خيانتي بهذه الطريقة لعاداتي وكذا طبيعتي الشخصية، فيمكنني تأكيد أنني لم أشعر في حياتي قط أنني كنت أفضل من هذ اللحظة، وبالمثل أكثر راحة مع مشاعري، أو اتساقًا مع الكون. ثمة حقيقة دامغة وهي أنني أصررت، منذ أمروني بإحراق منزلي وتجهيز حقائبي، على التأقلم على أي ما ستكونه حياتي، إلا أنني لم أحلم قط بالوصول لهذا الحد: بأن أكون في قمة السعادة أمام هذه التقلبات ورغمًا عن حزني فوق كل شيء.

*****

سارعت في اليوم التالي لزيارة الطبيب مُستغلا راحة الأكل. نفى الطبيب -كما هو متوقع- أن يكون قد أعطاني أي عقار غريب، وقال لي إن ما أشعر به ليس سوى ثمرة تأقلمي المثالي والنهائي على حياتي الجديدة، بل وإنني يجب أن أبتهج عوضًا عن طرح أسئلة مزعجة لن تجدي شيئًا سوى إعادة القلق والضيق والأرق. لقد أجبته بأنه ما من داع لخوفه على الإطلاق، إذ إنني قضيت اليوم تغمرني بهجة داخلية، ومن شدتها لم أعد أعرف سببها، وإنني مع وصولي لهذه النقطة، لم أشعر بضيق أو قلق، بل ابتهجت بعدم معرفتي -بجهلي- وبأنني في الحقيقة عاجز عن التوقف عن الابتهاج بكل شيء، لدرجة ابتهاجي بهذه المحادثة التي أجريها معه، لكن تلك البهجة الأخيرة لن تضاهي بهجتي بالخروج من مكتبه والعودة للعمل.

سألني إن كنت قد تناولت طعامي وأجبته بالنفي، وكذا أنني سعيد بتلك المسألة؛ فهكذا سأستمتع أكثر بالوجبة الخفيفة، ثم غادرت العيادة بعدها على الفور، وعدت لعملي وأنا في قمة السعادة. ثمة أمر في هذه المدينة -ربما في كل شأن من شؤونها- يجعل المرء عاجزًا عن الشكوى، ليس لأنهم يمنعونك من أن تتحدث -فقد كانوا يتركونك- بل لأنك لا تنجح في العثور على سبب للشكوى من فرط سلاسة سير الأمور، إذ إنك في أعمق أعماق روحك لا تعثر سوى على سعادة لا تبارحك أبدًا؛ ولأنه ما من شيء عظيم قد تنتظره أو تخشاه في اليوم التالي، لم يكن سهلًا أن تشعر بالكرب، أو هذا الخوف المبهم الذي لطالما شعرت به سابقًا سواء بسبب الحرب أو أمن عائلتي أو من الذئاب التي كانت تحوم ليلًا حول مزرعة الدجاج. إنَّ تحقق

المرء من كيفية افتقاده لمشاعر سيئة قد اعتاد عليها لأمرٌ غريب، وكذا الطريقة التي يصحو بها متعجبًا من أنه قد نام جيدًا دون خوف، فمن كثرة الليالي التي خلدت فيها للنوم دون مخاوف بدوت لنفسي شخصًا آخر، شخصًا لم أعد قادرًا على الثقة فيه بصورة كاملة. لم تكن ثمة كنائس في المدينة الشفافة، وهكذا إن اضطر المرء للاعتراف بشيء فلن يجد سوى نفسه ليعترف لها. وكما قلت، لم أتجرأ على الاعتراف لنفسي بمدى استيائي أو الثِقَل الذي بدأت تُشكله فوق كاهلي سعادتي الجمة الدائمة وجهلي لمُسبباتها. هناك فرصة للتحدث مع مستشاري النقابة هؤلاء، لكن عليّ الاعتراف بأنني منذ وطأت قدمي المدينة الشفافة -بل وربما قبل مجيئي إليها أيضًا- لم أثق كثيرًا في الآخرين لأبوح لهم بخصوصياتي. لم أكن قط رجلًا يتباكى أمام الناس بمشاكله، إذ إنني أحسب أن كلًّا منا لديه ما يكفيه منها، كما أنه ما من أحد يهتم حقًّا بشيء لا يمسه، فالناس تتظاهر بأن أمور الآخرين تهمهم، إلا أنني لا أومن بحقيقة هذا الادعاء؛ لا هنا ولا في أي مكان آخر. لا أظن -لكي أتحلى بالصدق- أن القساوسة أيضًا قد يهتمون بمشاكل من هم سواهم، بل ولا يبدو لي حتى ممكنًا أن يعرفنا الرب جميعًا بأسمائنا. أقصد باختصار أنه حينما يتعلق الأمر بما يحمله المرء في قلبه أو عقله، فما من أحد سواه قد يهتم به، ولهذا قررت منذ الصغر ألا أهيم هنا وهناك لأحكي شؤوني لأحد، والآن بعد أن بت عاجزًا عن الاعتراف لنفسي بشكوكي دون أن أشعر حقًّا بهذا أو ذاك، صرت أكثر وحدة من الساعة الواحدة، صامتًا أكثر من صغيري خوليو، إذ إنني أفترض أنه على الأقل كان يتحدث مع نفسه بصوت روحه الواضح، وهو الشيء الذي امتنعت عنه دون إدراك مني، كأننا -أنا ونفسي- اثنان نسير سويًا دون أن يخاطب أي منا الآخر.

مرت الأيام دون مستجدات تذكر، إذ ظلت سعادتي الدائمة تلتصق بي كما روث الماعز بأحذية الصيد. وكأن هذه المأساة لم تكن كافية، فقد

باتت زيارات شاب المكتبة الأنيق متكررة: مرتين أسبوعيًا في البداية ثم بعد فترة وجيزة في كل ليلة تقريبًا. لقد أبدى اهتمامًا جمًا؛ ليس بها وحدها، بل بالصغير أيضًا، إذ كان يلعب معه ألعابًا حسابية لا أفقهها ويقرأ معه الكتب؛ ليس كتابي بالطبع، فقد أخفيت أطلس الحيوانات خاصتي في كل مرة جاء فيها هذا الدخيل. لست مثقفًا بالمرة، لكن هناك أشياء أعرفها، وبدا لي أنه يقرأ للصغير أمورًا معقدة يعجز عن فهمها، إلا أن خوليو على النقيض كان يتحمس ويرسم أشياء لا حصر لها بأقلامه الرصاصية واعتاد الشاب الأنيق أن ينظر إليها بذهول. كانت سعيدة، وبالمثل أنا -نتيجة لحالة بهجتي الدائمة- إذ إنه ما من شيء عجيب أو مزعج أيًا كانت ماهيته قد حدث في حياتي ونجح في إصابتي بالحزن. يُمكن القول إنني عثرت على نوع من التناغم في وجود هذا الفتى الذي أولانا اهتمامًا كبيرًا، لدرجة أنني كنت أشرب نبيذه عن طيب خاطر -فقد اعتاد أن يجلب معه زجاجة من النبيذ الأحمر- بل وكنت أول من يخلد للفراش وأبتهج بنومي بينما أسمعه وهو يتحدث معها عن أشياء شديدة الحكمة والأهمية لم تهمني على الإطلاق.

ما أقوله هو إن هذا الروتين لم يشعرني بسوء في البداية بل ولم ينجح في إثارة غضبي بمرور الوقت، لدرجة أنني تباهيت في العمل بمدى ذكاء أمين المكتبة الشاب الذي اعتاد زيارة بيتي، وأعجب شيء أن الوضع لم يبد غريبًا لأي من زملائي وزميلاتي في مصنع إعادة التدوير، بل ولم يصدر من أحدهم تعليق خبيث، ما دفعني للتفكير في أن ما يحدث لي؛ أقصد نوبة السعادة السخيفة هذه أو أيًا كان مسماها والتي لا مناص لك من قبولها بصورة طبيعية؛ هذه الأريحية المبهمة والإجبارية التي حولتني إلى محض أبله، قد سبق وأصابتهم بالمثل قبلي بوقت كبير.

لم أقدر على تصديق أن كل الأمور متساوية في هذا العالم الجديد، في

المدينة الشفافة؛ سواء تعلقت بشاب أنيق يحوم حول زوجتك ومنزلك أو بتصويت في النقابة للمطالبة بتوفير شحم أكبر لأذرع الجرار. صحيح أن الجرارات تصدر صريرًا، لكن أليس لدى هذه الناس الطيبة شيء أفضل لتفكر فيه؟ انعدمت الريبة تقريبًا في هذه المدينة بشكل استحال معه أن تشعر بالقلق، أو على الأقل أن تحاول أن تشعر بالقلق، لأن القلق في الحقيقة لم يكن سهلًا جراء السعادة التي تغمرك من كل شيء ودون مبرر واضح، فمع تأقلمك على كل شأن -سواء العمل أو ما يحدث في المنزل- تفقد قدرتك على إبداء أي مقاومة، ففي كل تفصيل صغير تجد -رغمًا عنك- ألف مبرر لأعمق أنواع الهدوء؛ فكل شيء يسير دومًا بأروع صورة، فإن كانت ثمة حاجة لتقضي يومك تنقل الخراء، ستفعلها وأنت مغتبط، وإن كانت ثمة حاجة لتتحمل زيارة شاب أنيق يغازل زوجتك ويوجه صغيرك، ستبتلع المسألة راضيًا وربما تطلب طبقًا آخر منها، وهكذا تظل الأيام تمضي دون أن تفكر حتى في الاعتراض على شيء، فالمدينة مثالية والشكوى من المثالية من سمات المجانين، وفي غياب المشكلات الكبرى -التي لم يطرأ منها شيء- ما من سبب لرفع الصوت سوى سوء النية، ولأن المرء لم يعثر عليها داخله -حتى ولو بحث عنها في جيوبه- فالحل الوحيد هو أن تصمت وتبتلع المسألة. لقد صمت وابتلعت، يومًا تلو الآخر وليلة تلو الأخرى، مدركًا أنني هكذا أخون طبيعتي، لكن واعيًا أنني لست أحمق، وأن طبيعتي لا تتناسب مع هذه المدينة، وبالمثل أنني حتى لو تحليت بالجسارة اللازمة للبحث عن طبيعتي القديمة لأوظفها، كما يستخدم المرء رافعة لتحريك صخرة، فسأعجز عن العثور عليها، وحينها أقول عليها فلا أعرف إن كنت أشير إلى الرافعة أم طبيعتي أم الصخرة، فكلما زاد ابتلاعي للأمور، زاد التباس كل شيء من حولي. كيف لرجل أن يفقد طبيعته الشخصية ومعها إحساسه بذكائه الصغير أمر أعجز عن تفسيره، أما أن يتيه بسبب ظروف

ما فهذا هو ما لدي الآن.

ذات يوم من الأيام لدى عودتي من العمل حدث أخيرًا شيء مختلف، وإن كنت أخشى أنه ليس مفاجئًا بصورة كلية. فهناك، كان يجلس الشاب الأنيق، لكنه هذه المرة معها لوحده، فالصغير على ما يبدو لم يكن قد عاد من مجموعة من الأنشطة المدرسية الإضافية. سألتها عن ماهية هذه الأنشطة بينما -إن لم تخني الذاكرة- كانت تزرر قميصها وتعقص شعرها في ضفيرة مُرتجلة. نظرت نحوي بمودة -دون ملمح للخجل- بينما يرفع صديقها سرواله في غرفة النوم الشفافة. انتظرت في صمت حتى ارتدى الفتى ملابسه، ثم خرج وبعدها شرح لي بالتفصيل كل واحد من الأنشطة المدرسية الإضافية لخوليو. لقد أخبرني أمين المكتبة أن الاختبارات الصارمة التي خضع لها عزيزنا خوليو في المدرسة لم تدع مجالًا للشك، إذ اتفقت كلها على تشخيص واحد يقول إن الصغير مميز، وليس مميزًا بصورة قليلة بل هائلة، وبناء عليه فقد تم إدراجه في برنامج لتوجيه وتنمية وإرشاد العقول الاستثنائية يسعى للحفاظ على قدراته وتحفيزها. لست في حاجة لقول إن هذا قد أسعدني كثيرا، لكن رغم ذلك وددت أن أسأله عن علاقة كل هذا بانتفاعه من جسد زوجتي داخل منزلي. قلت إنني وددت أن أسأله وليس إنني قد سألته، لأن الرجل الطيب استمر في أحاديثه الرائعة عن خوليو وكذا تقديم بيانات علمية بخصوص اختبارات السعد هذه التي خضع لها الطفل والتي لم أفهمها لكنها -وفقًا له- أثبتت بكل وضوح أنه بحق حالة فريدة تتفوق بكثير في معدلاتها على أي طفل مميز تقليدي. كنت أتساءل عن ماهية هذه المعدلات وهؤلاء الأطفال المميزين التقليديين، عندما انتزعني الفتى من شكوكي واعترف لي بأنه نفسه شاب مميز للغاية، وإن كان ليس بنفس درجة صغيرنا؛ فإن كان تصنيفه يندرج تحت درجة عالية

من التميز، فخوليو يفوقه بمقدار الضعف في أيٍّ كان ما يميزهما. اغتبطت كثيرًا من المسألة، فعلى الأقل هناك في منزلي من يتفوق على هذا الشاب الوسيم المثير للإعجاب في شيء، حتى ولو لم أكن أنا. رغم ذلك، صحح لي الشاب انطباعي الأول بإبلاغي بأنه ما من علاقة في الواقع بين الطريقة التي يتميز بها الصغير وتلك التي تخصه، فكل منهما حالة استثنائية بمفردها، بل ويمكن القول إنهما متعارضتان، وأمام كل هذه المفردات المُلغزة تشكلت لديَّ بلبلة هائلة واضطررت لسؤاله إن كان الصغير شديد الذكاء فعلًا أم أنه شديد الغباء. لقد وبخني الشاب بحدة، بقوله إن هذا السؤال ليس مناسبًا بأي حال من الأحوال، بل وإن صنف الأسئلة هذا تحديدًا هو ما يجعل العالم مكانًا ظالما للمميزين، ولأنني ما من رغبة لدي لأظلم المميزين أو من هم سواهم، لم أسأل شيئًا آخر وأطبقت فمي.

لقد شرحت لي بعدها أنه بناء على استثنائية وضع خوليو، فقد قررت لجنة التعليم أن الصغير ليس في حاجة فقط إلى برنامج تأهيلي مُفصل وبعيد عن بقية الصبية الذين هم في عمره، بل وتعيين مشرف شخصي، مُوجه يجب أن يبقى بالقرب منه كمساعدة إضافية خلال السنوات المقبلة، ومضطر لأن أقول إنني لم أندهش على الإطلاق حينما عرفت هوية من وقع عليه الاختيار لأداء هذا المهمة فائقة الأهمية؛ فهو لم يكن أكثر أو أقل من صديقنا الشاب صاحب المؤهلات الذي تكرم بطلب نقله من المكتبة العامة لكي يهتم به ليلًا ونهارًا؛ ومما رأيته عصرًا، فلم يكن معنيًا فقط براحة خوليو وحده، بل بمحيطنا العائلي بأكمله. كنت سعيدًا بالأخبار الجديدة لدرجة أن ما كان ينقصني هو الشقلبة في المكان، لكن ما فعلته كان وضع نفسي في المغطس لمحاولة إطفاء بهجتي والبحث من جديد داخل روحي عن طبيعتي القديمة، لكن لم ينفع الأمر، إذ لم أعثر عليها، وكان ما رأته زوجتي

وهذا المشرف النشط على حياتي العائلية الجديدة عبر الحوائط بينما أحاول البكاء دون نجاح هو نفس ما رأيته أنا غصبًا عني في المرآة: وجه رجل راض بنصيبه بصورة غير عقلانية.

في تلك الليلة حينما عاد خوليو أخيرًا من الأنشطة المدرسية الإضافية احتفلنا -نحن العائلة- بالأنباء الجيدة معًا أو بمعنى آخر: هي وأنا والصغير وبالطبع الشاب أمين المكتبة السابق والمُوجه الحالي، ثم ذهبنا جميعًا -وحينما أقول جميعًا أقصده هو أيضًا- للفراش. حسنًا.. في الحقيقة أنا لم أذهب للفراش، إذ إنني منذ تلك الليلة انتقلت للنوم على الأريكة، بينما ذهبت هي والشاب المغتصب الأنيق إلى ما كان قبلها بيوم فراشي. راجعت أنا وخوليو أطلسنا القديم للحيوانات ليشع وجهه نورًا مع الحيوانات الأكثر غرابة ويضحك ويكركر مع رؤية خُلد الماء. الحقيقة أنني لم أعرف في أي شيء كان مميزًا، إلا أنه بالنسبة لي كان شديد الملاحة.

*****

3

مرت الأيام التالية دون ألم أو مجد. العمل جيد. لا مفاجآت أو خلافات أو حوادث. رشحني مشرفي لترقية بدا أنها لن تصل بتاتًا، فالترقيات يجري التصويت عليها في النقابة ويبدو أنهم هناك كانوا يدلون بأصواتهم دومًا لشخص آخر، وإكرامًا للحقيقة عليّ أن أعترف أنني نفسي لم أصوت لصالحي إذ لم أرغب في الترقية. كنت راضيًا بما أنا عليه واعتدت إتمام ما عليّ من مهام دون تململ وبسعادة، لأنه لم يكن ثمة صورة أخرى لإتمام ما عليّ سواها. شاركت في تصويتات لا حصر لها: لمنصب مندوب القطاع، ورئيس القطاع التنظيمي، وشيء ما يرتبط بخدمة النظافة، ففي كل أسبوعين أو ثلاثة يجري التصويت على أمر ما، لدرجة أن المرء كان يفقد اهتمامه في النهاية من كثرة التصويت. على الجانب الآخر، سار كل شيء في المدينة على ما يرام، بنظام شديد في كل ما هو أساسي، ولم يخطر لي كيف يُمكن تنظيمه بصورة أفضل، ما زاد من ضيقي في كل مرة أذهب فيها للتصويت.

لقد تأقلم المرشد الشاب الأنيق بنعومة على حياته الجديدة معنا.. وهي أيضًا. ذات مرة طرأ لي أن أسألها إن كانت تفتقدني ونفت، لأنني كنت بالقرب منها في نهاية المطاف. قالت لي أيضًا إن مثل هذه الأمور تحدث بين الأزواج ولا حاجة لإعطائها أهمية كبرى، ثم أخبرتني في النهاية بأنني قد تغيرت كثيرًا ولم أعد أُمَثِّل حتى طيفًا للرجل الذي كنت عليه، فشكرتها على صراحتها.

لأن وقت فراغي كبير وما من شيء لدي لأفعله في المنزل، سجلت نفسي في دورة صغيرة للتنمية الذاتية. علموني كيف أعبر عن نفسي بصورة مميزة وكذا ترتيب أولوياتي. الدورة مجانية، ككل شيء في هذه المدينة الملعونة، لكنها تُعلمك الكثير وبسرعة. بمجرد أن تعلمت ترتيب أولوياتي أدركت أنه ما من أولويات لدي لترتيبها، إلا أن مُعلمتي قالت لي ألا أقلق، فالدورة ستساعدني على ترتيب أي شيء آخر: درج الجوارب على سبيل المثال. كان معها كل الحق، فمنذ ذلك الحين بقيت أشيائي الأربعة دومًا مرتبة بصورة مثالية. حينما مللت من الترتيب ورؤية كل الأمور منظمة، سجلت نفسي في بطولة لتنس الطاولة ترعاها النقابة. استمتعت كثيرًا وارتفع تقديري لذاتي، بل وأخبرني مدربي أنني إن أخذت المسألة بجدية فقد أشارك في البطولة الوطنية للكبار التابعة لنقابة ناقلي الفضلات. سألته أين تُلعب هذه البطولة وأجابني بأنها في كل أنحاء الأمة. لقد بدت لي فكرة رائعة، إذ إنني لم أكن أعرف جيدًا أي أمة هي، أو كيف صار كل شيء هناك في الخارج، وهكذا قد أحصل على فرصة لرؤية بعض منه. اشتقت لرؤية الريف، أو ما يتبقى منه وربما -لأننا نحلم- لزيارة الدائرة القديمة. شرعت أتدرب كأنني ممسوس، وفزت على كل زملائي واحدًا تلو الآخر وبفارق كبير، وكما هو منطقي خسرت حظوتي بينهم. لم يعد أحد يتحدث معي في المقصف تقريبًا، إذ إن هناك قومًا لا يفقهون كيفية تقبل الهزيمة، وهكذا بمرور الوقت تركت بعضهم يهزمني لأرى إن كانوا سيتناسون مسألة لفظي من بينهم، إلا أن الوقت كان قد تأخر، إذ إن بعضهم حقود للغاية بصورة تفوق عدم تقبله للهزيمة. المشكلة أن مسألة تنس الطاولة لم تجلب لي خيرًا بل شعورًا بالغضب، خاصة في ظل اعتقادي أن لدي موهبة ربانية، ومن كثرة تفويتي للمباريات تراجع تصنيفي، لكن دون استرداد محبة زملائي، وبات لي جليًا أن الضغينة التي جلبتها انتصاراتي لن تنمحي بتعرضي للإذلال. لقد لُعبت

البطولة الوطنية بدوني وفاز بها آخر، إلا أنني لم أتوقف عن اللعب في كل الأمسيات لأن اللعب -سواء كنت أكسب أو أتركهم يهزمونني- كان يُلهيني عن فظائع أخرى.

لم أكن فرد العائلة الوحيد الذي حقق تطورات مذهلة في تلك الفترة، إلا أنها لم تذهب بي في النهاية لأماكن بعيدة، فقد دخل خوليو المدرسة المميزة وأذهل كل مُعلميه. منحوه شهادات كثيرة لدرجة أننا لم نعرف أين لنا أن نضعها. اشتد عوده وكان قويًّا وسعيدًا. ظل ودودًا جدًّا معي حتى وإن قضى الجانب الأكبر من وقته في الدروس أو مع موجهه الشاب الذي يعيش في المنزل وينام معها، فقد كان ما يزال يعرف أنني والده، أو على الأقل أكثر شيء قد يشبه أباه. اعتاد أحيانًا أن يأتي لمشاهدتي ألعب في مباريات تنس الطاولة ليصفق لي إلى حد السُّعار، حتى وإن خسرت.. ربما لأنه لم يكن يفهم.

كان كل منا فخورًا بالآخر.

بمرور الوقت، ازداد تعاملي مع سعادتي الهائلة كأنها أمر طبيعي، رغم أنها لم تكن كذلك. أعتقد أنني قد بدأت أستسلم بمرور الأيام، أو أنني لم أعد حتى أتعجب من عجزي عن الشعور بالغضب. أفترض أنني بدأت أتعب -كالكلاب الشائخة- واكتفيت بقبول الأمور كما هي؛ والتي ستظل كما هي حتى يغيرها شيء ما، أو شخص ما، وأنا -ولماذا قد أنكر!- لم أكن هذا الشخص. وبالطريقة نفسها التي ترقد بها الكلاب الشائخة متقبلة لمصيرها، رقدت أنا نصف نائم ونصف يقظ منصاعًا لأوامر النصيب التي لا تُبصرها عين. إن المرء بمجرد قبوله أن الرب لم يصطفه لشيء استثنائي، يكتفي بعيش حياته كما يجب أن تُعاش، بقدميه ويديه داخل دائرة رملية محددة، دون أن يخطو أبعد مما يخصه بعد أن فقد رغبته في انتزاع ما ظن أنه كان له.

كما قلت.. بدأت أنا وسعادتي غير المبررة نقبل بعضنا بعضًا، بصورة قللت للغاية من عدد المرات التي أدركت فيها أنني صرت دومًا سعيدًا بصورة تفوق الحد. أنام الليالي في هدوء. أستلقي على الأريكة المقابلة لفراش خوليو ويحدق كل منا في الآخر قبل وضع أقنعتنا ليغفو كل منا مستسلمًا. أتمنى له ليلة سعيدة ويبتسم دون أن ينطق. ظل صامتًا لا ينطق، إلا أن الأطباء أكدوا لنا أنه ما من مكروه في حنجرته، فهو ببساطة يفضل أن يبقى صامتًا. بدا لي غريبًا أن يحبذ أحدهم ببساطة ألا يتحدث أبدًا، لكنني لست طبيبًا والصغير بدا في خير حال. هي على النقيض لم تبد سعيدة جدًا، وأفترض أنها فعلت ما فعلته وكانت تنام مع الموجه الشاب لأنها اعتقدت أنه أفضل شيء لخوليو. أيضًا، لم نتحدث أنا وهي كثيرًا، فقد كانت طوال الوقت تقريبًا مع الشاب الأنيق، الذي لم يعد يبدو لي لا شابًا ولا أنيقًا، بل وقد بدأ يفقد شعره بالمناسبة.

أنا من ناحيتي، قد حظيت بمغامرة هنا وأخرى هناك. في الحقيقة هما مغامرتان فقط، مع صبيتين من «خدمة التفريج عن النفس»، أو من كان ليُطلق عليهما في وقت سابق ساقطتان، لكن هذه التسمية لم تعد سارية هنا والآن ومعهم كل الحق، فهن الآن لا يقبضن أموالًا مقابل العلاقة بل ودودات ومهذبات أيضًا. إن كان ثمة سبب لعدم زيارتي لهن بصورة أكبر، فهو أنني لم أعتد على المضاجعة على مرأى من الجميع في تلك المواخير الشفافة، ولضرورة رفع تقرير لها في كل مرة. لسبب ما لم أدركه، هناك ضرورة في المدينة الشفافة لرفع تقرير عن أي شيء، رغم أن كل الأمور على مرأى العيان وما من مكان للاختباء. لقد تغازلت أنا وزميلة لبعض الوقت أيضًا، إلا أن المسألة لم تصل لمراحل متقدمة. داعبنا بعضنا في الحمامات فقط. ما يحدث أنني أفقد تركيزي في الحمامات، إذ يحدق فيك الناس وتفقد

اندفاعك. البعض لا يهمه هذا، وبالتالي كانت أيامًا قليلة تلك التي لم يجمع فيها زميلين أداء سينمائي هناك، لكن كما قلت.. أنا لم أعتد المسألة وأفترض أن تربيتي على المدرسة القديمة هي السبب، فأنا من أنصار فعلها في الظلام، وهي مسألة مستحيلة هنا بالطبع، وهذا لأنه ثمة شيء موجود في المدينة الشفافة بصورة لم أعهدها في أي مكان آخر وهو الوضوح. قد يكون للمرء رأي جيد أو سيئ عن الوضوح، لكن الحقيقة الدامغة هي أنه يلتهم كل الأسرار وكل الألغاز بل وكل الرغبات، حينما يزيد عن الحد ويفرض نفسه كحالة وحيدة، ليفقد بعدها الإنسان رغبته في إبداء الاهتمام من كثرة ما رآه، لذا أظن أن المهندسين الذين شيدوا هذه المدينة الزجاجية التي تفيض نورًا ووضوحًا ومثالية في حاجة لتعلم القليل عن هذه الطبيعة التي لا تخلو من زوايا وأطياف.

كانت حرارة الشمس لتصبح مُضنية أحيانًا في أراضينا، فلا ينفع المرء لا المكوث في المنزل أو مغادرته. نفتح النوافذ ليلًا ونشرب الليمونادة، إلا أن شيئًا لم يحد من تدفق عرقنا أو يخفف من اختناقنا. مع دوران فصول السنة -وبعد تموضع العالم بصورة طبيعية في الاتجاه المعاكس- نعيش حياة أخرى مختلفة؛ ففي الشتويات القاسية كنا نلوذ بأجسادنا أسفل البطاطين ونتناول عشاءنا بالقرب من المدفأة ونلف أيدينا بالخرق القديمة لتفادي الشرث[1]، فالمرء يتعلم في الريف التعرف على حدود الأشياء وقوة الأشخاص وطباعهم. كانت الأرض هي ما يحكم في النهاية؛ أما هنا فيبدو أنه ما من أحد ليحكم. في الحياة التي اعتبرتها حياتي بحكم التعود لم يكن ثمة شيء إلزامي قد يجبر المرء على تقويم سلوكه، ورغم ذلك قَوَّمته وأطعت، حتى

1. كتل حادة ومؤلمة تصيب الجلد نتيجة للاحترار بعد التعرض للبرد وتتضمن أعراضه الحكة وظهور بقع حمراء وتقرحات على أصابع اليدين والقدمين والأذنين والأنف.

ولو لم أعرف تحديدًا ما الذي قد انصعت إليه؛ ربما حُمرة جذوع الأشجار داخل المدفأة، أو البق المختبئ في مراتب الصوف أو قذارة ما بين الأظافر.. ربما البرد والحر. ما أقصده هو أن حياة الإنسان تُصبح منظمة أو تجد نفسها على الأقل في نظام ما، حينما ينصاع للطبيعة. إن الانصياع للحُمرة والسواد والبياض أفضل وأدعى من الانصياع لكل هذه الشفافية، إذ إنه لا مناص من التجاوب مع ما هو حقيقي لكنه غير كامل الوضوح -أي عندما يظهر شيء ويختفي آخر- ومن هنا يتضح لِمَ تخمد معنويات الإنسان عندما يرى كل شيء واضحًا.

أظن أنه ما من أحد يرغب في الخروج للصيد واكتشاف أن الحيوانات لم تعد تختبئ ضد طبيعتها وضد غريزتها؛ وبالطريقة نفسها أتخيل أنه ما من أحد يود أن يظل دومًا مكشوفًا إن أخبره حدسه بأنه تُحفة. باختصار.. أنا لم أفهم هذه الحياة الخالية من العواصف والأحزان، بل ولم أرغب حتى في فهمها.

لم ينقصنا قط أي شيء آخر في المدينة الشفافة، بل إنهم تركونا نُهادي بعضنا في أعياد الميلاد، فثمة هدية لكل شخص يتم اختيارها من قائمة -وفروها لنا في وقت سابق- وتضم أشياء نافعة: قصافة أظافر، قواعد عازلة للأواني الساخنة، فناجين خزفية صغيرة لتقديم البيض المسلوق، دهانًا لآلام العضلات (وكنت أعاني بعضًا منها بسبب تنس الطاولة) وأشياء على هذه الشاكلة. كل ما كان مطلوبًا هو ترك علامة «زائد» بجانبها لكي يحصل الشخص المختار على الهدية المختارة؛ صحيح أن المسألة ليست شيئًا من عالم آخر أو ذات متعة كبيرة، إلا أنها هدايا في نهاية المطاف وتُكسب أعياد الميلاد بعض الروح. لقد حصلت على دهانات تكفيني لحياتين، رغم أن كل ما لدي هو إصابة صغيرة في الكوع، لكن هكذا تسير الأمور في

المدينة الشفافة: تحصل على الكثير مما لا توده، أما ما ينقصك حقا، فنصيبك منه هو العدم.

لم تكن ثمة احتفالات سوى أعياد الميلاد وعيد النصر. يُحيي عيد النصر في الحقيقة ذكرى هزيمة كل من يعيشون هنا، في الداخل، لكن يبدو أنه لا أنا أو أحد منهم يتذكرها حقًّا. يفرشون موائد طويلة في الشارع ويوزعون النقانق والجعة في صورة أشبه بالعيد الشعبي الذي كان لدينا. ما هو مؤكد أن الكل -بما فيهم أنا- كنا نقضي وقتًا رائعًا، أو على الأقل نظهر جميعًا سعداء. لو سألوني، لأطلقت عليه مسمى يوم الإجلاء أو يوم الانتقال النهائي أو يوم انتهاء حياتك السابقة، إلا أن أحدًا لم يسألني وهكذا احتفظت بآرائي لنفسي.

صنعنا صداقات قليلة، أو على الأقل أنا، إذ إنها شاركت أحيانًا مع الموجه الوسيم هذا في تجمعات للقراءة ليتحدثا مع مثقفين مثلهما تقريبًا عن الكتب. لم يدعواني، وحتى لو فعلاها لم أكن لأذهب. إن الكتب حينما تخلو من صور الحيوانات والطبيعة لا تروق لي كثيرًا، بل إنني لا أفهم السبب وراء منحها كل هذه الأهمية، إذا كان كل ما فيها من وحي الخيال وقليل منها حقيقي. أظن أن من تنقصهم الشجاعة يستمتعون كثيرًا بالخيال، أما نحن الرجال عن حق فنستمتع بما نلمسه بأيدينا، لكن ها هو ذا حالنا.

سبق وقلت إنني كلما تفوقت في تنس الطاولة كلما أساؤوا معاملتي، أما مدربي الذي قدرني في البداية، فبدأ يتخلى عني بعدما خطرت لي فكرة تفويت المباريات. هكذا مكثت وحدي في النهاية، ربما وحيدًا أكثر من اللازم، بين تأنيب من هذا وذاك. ذهبت للسينما بين الفينة والأخرى لأتسلى، إلا أن الأفلام كانت شديدة القدم، وأغلبها موسيقية، وهو شيء يوترني نوعًا ما، فأنا لا أفهم أيضًا لم قد يعيش بعضهم يرقص ويغني، في

حين أن السير والكلام هما طبيعة الإنسان. لقد حاولت ذات مرة أن أُعلّق بخصوص المسألة، لكن أحد مرتادي السينما أمرني بالصمت، وهي مسألة أفهمها؛ فإن كان أحدهم يستمتع بفيلم ما، فمن المزعج جدًّا أن يشوهه أحدهم له، كما أن تململي من الأفلام الموسيقية ليس ذنب أحدهم.

إن مسألة السينما فوق كل هذا لم تكن سوى سبيل لإضاعة الوقت والبقاء خارج المنزل، إذ كان لدي إحساس أنني مجرد فرد إضافي هناك؛ حتى ولو لم يقل أحدهم شيئًا، لكن هذا لم يؤسفني أو يؤلمني أو يهمني على الإطلاق. كنت سعيدًا مع الصغير وأظن أنه كذلك معي، لكن لأنه أخرس ولأنني أيضًا قليل الكلام فلا يمكنني قول إننا كنا نحكي ونتحاكى. كنا نضحك كثيرًا. هذا صحيح، إلا أنني لا أعرف على ماذا كنا نضحك. كل منا كان رفيقًا للآخر كطفل وكلبه، وهما أفضل صديقين ممكنين دون أن يتحدث أحدهما مع رفيقه، أما أي شيء آخر فلم يكن يهمني تقريبًا.

أظن أنني قد أخذت -دون حتى أن أدرك- أفقد الإعجاب والاهتمام بكل الأمور تقريبًا. لم يكن للسياسة أن تهمني على الإطلاق، لا المحلية ولا الخارجية، بل إن المصنع نفسه عجز عن شد انتباهي بصورة كبيرة جراء ألاعيب النقابة، فرغم طلبهم لآرائنا وأصواتنا أمام كل صغيرة وكبيرة، إلا أنهم نظموا كل شيء تقريبًا بصورة مثالية دون مساعدة مني، وأنا لم يكن لدي القدرة أو الذكاء وبالتالي الرغبة اللازمة لتعديل خطط أحدهم.

تجولت أحيانًا لفترات طويلة، إلا أنني لم أذهب بعيدًا، بل سرت في دوائر حول الناس بينما أحملق في حيوات الآخرين، إلا أنني لم أجدها مختلفة جدًا عن حياتي، دون أحد لأحسده على شيء أو حتى فرصة لأكن ضغينة لأي من نظرائي. مرات قليلة فقط تلك التي افتقدت فيها ما تشاركناه أنا وهي قبل أن ينتزعونا من أراضينا، وذلك حينما كنت أرى زوجين غارقين

في الحب والشغف. أتذكر أيضًا أنني ذات مرة بينما أتجول سمعت رجلًا يصرخ في الشارع وتمنيت أن أكون هذا الرجل ولو لثانية، إذ كان جليًا أنه يفرج عن ألمه. كان المسكين يسير قاطبًا جبينه، يصرخ في الشارع دون أن يوليه أحد اهتمامه، وأفترض أن غضبه هو ما وددت أن أعثر عليه داخلي، وهو الشيء الذي افتقدته بغتة. مرت فترة طويلة دون حتى أن أدرك أنها قد مرت؛ وربما كانت لتمر فترة أطول دون أن أجد أمرًا جللًا لأحكيه لولا أنني قررت ذات مساء -ولا أعرف السبب- تفويت تمرين تنس الطاولة وعوضًا عن التوجه للمركز الرياضي ككل الأمسيات، وجدت نفسي أسير نحو الحانة القديمة. مرت سنوات على آخر جعة تناولتها دون حتى أن أفتقد مذاقها، إلا أن العطش عاد لي ذلك اليوم. يقولون إنه يُمكن إخراج رجل بسهولة من قريته، أما الأكثر صعوبة فهو إخراج قريته منه. ربما هم على حق. اضطررت لأخذ جولتين قبل عثوري على الحانة، فكل شيء متشابه في هذه المدينة لينسى الإنسان على الفور أي طريق، إلا أنني حينما انعطفت في أحد الشوارع توصلت إليها. كانت هناك. شديدة الشفافية وتملؤها الحركة كما هي دائمًا. عثرت لنفسي على مكان عند المشرب وطلبت جعة باردة. بينما أستمتع بالرشفة الأولى -وما من شيء في هذا العالم كأول رشفة من جعة باردة- ربت أحدهم على كتفي فالتفت، ومن كان هناك؟ صديقي القديم والوحيد: شرطي المنطقة السابق. كم عانقنا بعضنا! لست في حاجة لقول إنه جلس بجواري وطلب لنفسه جعة أخرى وشرعنا ندردش كرفيقين قديمين، حتى ولو لم نكن كذلك. لم يطرأ الكثير لا على حياته ولا حياتي طيلة تلك الفترة، إلا أن هذا لم يكن مهمًا، فالتواطؤ الإجباري لأبناء البلدة الواحدة حرّك أحاديثنا. لقد غمرته السعادة بكل الأمور الطيبة التي حدثت لي؛ مسألة تنس الطاولة والصغير المتميز الذي لم يتوقف عن تلقي الشهادات كجائزة على تفرده. لم يكن لديه أبناء وتَخَيُّل امتلاك الصغار لقدرات سحرية

أمر شائع بين من لم يعرفوا الأبوة، كأن العمر لن يتقدم بهم ليغدوا مثلنا، ولهذا لم يتوقف عن تكرار أن الصغار كنز ونعمة وهبة من الرب وأنهم ملح هذه الحياة. أدركت قلة ما أعرفه عنه حينما سألته عن أموره، فكبداية لم أعرف ما هي مهنته قبل أن يصبح شرطيًا للمنطقة أثناء الحرب، ولا حتى ما هي مهنته في الوقت الحالي. لقد أخبرني أنه كان فني مُنظمات في مصهر قبل الحرب، لكن المسألة لم تنفعه كثيرًا فلا مكان للصناعات الثقيلة في المدينة الشفافة، ولهذا عينوه في عامه الأول في تنظيف الزجاج الذي لا يخلو مكان منه، ثم نقلوه بعد انقضاء السنة إلى وظيفة مُهمة في معسكر الاستقبال كمكافأة على خدمته الجيدة كشرطي أثناء عملية إخلاء الدائرة. لم تكن لدي أدنى فكرة أن معسكر الاستقبال ما يزال قائمًا، فقد ظننت أنهم قد أنهوا استقبالنا جميعًا منذ فترة، إلا أنه أخبرني بالنقيض، إذ يصل مُتخلف أو اثنان بصورة يومية تقريبًا. لقد أطلقوا على القِلة التي تمكنت بطريقة أو بأخرى من الفرار من الإجلاء مُسمى «المُتخلفين»؛ وهم أحيانًا كبار في السن تجاهلوا الأوامر وفي مرات أخرى أكثر من فلول الجيش المهزوم. جنود قد اتخذوا من الجبال أو كهوف الصحراء ملاذًا لكيلا يسلموا سلاحهم. لم تكن مقاومة منظمة، بل مجموعات متمردة صغيرة تسقط بمرور الوقت. في مرات أخرى، كانوا أشخاصًا عاديين عُزّل ما من نية سيئة لديهم وفضلوا ألا يعيشوا في المدينة الشفافة. تذكرت فجأة ابنيّ أوغوستو وبابلو وتعجبت من أنني لم أتذكرهما سابقًا أو من حين إلى آخر أو دائمًا، ووددت أن أعرف لو كان ممكنًا أنهما قد مرا من هناك. أخبرني بأنهم قد استقبلوا أكثر من مائتي متخلف منذ تسلمه للوظيفة ومن المحال أن يتعرف عليهما هكذا بالاسم، كما أنها أيضًا معلومات سرية، فسألته إن كان لا يحق للمرء المطالبة بأولاده، ليخبرني بأنه ليس أمرًا شائعًا، إلا أنه سيبحث في المسألة، لكنني لم أعلق آمالًا كبيرة. تركنا الموضوع هنا واتفقنا على أن نتقابل مجددًا، وذكرته بأنه

ما يزال يدين لي بزيارة للمنزل، فقد دعوته منذ زمن للعشاء يوم الأحد ولم يأت قط. اعتذر بقوله إنه كثير النسيان، ثم اعترف بعدها بأنه بعد مقابلته لي بفترة قصيرة قد التقى بصبية ظريفة للغاية فانمحت المسألة برمتها من رأسه. سألته حينها عما حدث مع تلك الصبية وقال إن المسألة لم تنجح وأنها ذهبت مع رجل آخر، ومع اعتراف تلو الآخر، حكيت له أن حياتي العاطفية أنا الآخر لا تمر بأفضل لحظاتها، وأخبرته بمسألة الأبله الذي يعيش في منزلي وينام مع زوجتي، فقال لي إن هذا الأمر طبيعي للغاية هنا، وذكّرني بنكتة هذا الحصان الذي تبين كونه محاميًا والرجل المسكين الذي عثر عليه في الفراش مع زوجته لدى عودته للمنزل. لم أتذكر نهاية النكتة، إلا أنه حينما بدأ يتلوى من الضحك من أحشائه وهو يسترجعها، ضحكت أنا الآخر لأرافقه، وهكذا بدأ كلانا يضحك دون معرفة السبب، وكلما ضحكنا تجرعنا مزيدًا من الجعة وهكذا دواليك. بالطبع لم نكن متزنين لدى خروجنا، وودعنا بعضنا بعناق، واتفقنا على تكرار لقائنا في اليوم التالي في الساعة نفسها، ووسط كل هذا بقيت دون أن أعرف نهاية النكتة.

في الصباح التالي، ولأنه ما من شيء يُذكر يحدث في أيامي، صعب عليّ التركيز في العمل، إذ كنت أفكر في سعادتي بالعودة للحانة مع صديقي وبالمثل في أنه ربما تكون لديه معلومة ما بخصوص مكان ابنيّ. ليست المسألة أن أحدهم قد أمسك شيئًا ما عليّ، فقد كنت أقوم بعملي بعينين مُغلقتين، إلا أنني كنت أشعر بكوني مُختلفًا من الداخل. لا أقصد السعادة، فهي للأسف كانت اعتيادية، بل أن شيئًا ما بات يهمني في النهاية، ما بدا غاية في الغرابة. لكي أضع الأمور في نصابها هذه المرة، مررت أولًا على المركز الرياضي بعد انتهاء الوردية، وادعيت وجود إصابة لم أعان منها وسمح لي المدرب، الذي أظن أن مسألة تنس الطاولة برمتها لم تهمه كثيرًا، بالرحيل دون طرح أسئلة كثيرة، ثم ذهبت إلى الحانة وجلست منتظرًا مع

جعتي. انتظرت وانتظرت إلا أن شرطي المنطقة السابق لم يظهر، وتساءلت إن كان مواطني هذا ينخرط في علاقة عاطفية في كل مرة نتفق على اللقاء ولم يبد لي أمرًا محتملًا، ثم تساءلت حينئذ إن كان شرطي المنطقة يتجنبني عن عمد، إلا أن الأمر لم يبد صحيحًا في ظل الحماس الذي أظهره في لقاءينا الوحيدين. رحلت حينما حلت ساعة افتقادهم لي في المنزل، والأمر لا يتعلق بأنني قلقت من أنها قد تؤنبني، فهي في نهاية المطاف تنام مع رجل آخر أمام عينيّ، بل لعدم تحملي فكرة تقديم شروح وتفسيرات لمُوجه السعد هذا؛ إذ إنه منذ استقر في منزلي، فقد سخر كل إصراره لحمايتنا جميعا والتصرف كأنه المسؤول الأول والأخير عن حياتنا. ما هو مؤكد أنني لم أفهم ما الذي تراه في هذا الشخص، بغض النظر عن وسامته الجلية وذكائه المبهر.

في تلك الليلة نمت قلقًا، وفكرت في أوغوستو وبابلو أكثر مما فكرت فيهما عبر السنين الماضية، ووبخت نفسي لأنني لم أقدم على التفكير فيهما بصورة دورية، وبالمثل لأنني لم أفعل شيئًا من قبل للعثور عليهما. لقد تعجبت سريعًا من أنها لم تدفعني للقيام بشيء رغم أمومتها، ومن أنها لم تشغل بالها باستقصاء أي أنباء عن ابنيها. عجزت عن فهم أننا لم نتحدث عن ابنينا الحقيقيين طيلة تلك الفترة، وكذلك الكيفية التي مكنتنا -أو على الأقل مكنتني أنا- من نسيانهما بسعادة. لم أتفهم أيضًا السبب وراء سعادتي الدائمة والجمة بكل شيء، ولا لم عجزت دومًا عن الشكوى. كنت أود أن أقلق منذ فترة بخصوص هذه المسألة، إلا أنني لم أنجح وخلصت إلى أن شيئًا غريبًا قد فعلوه بي أنا وأفكاري في المدينة الشفافة، ولأن أحدًا لم يجبرني على التفكير بهذه الطريقة أو تلك، فقد استنتجت أن كل هذا يرتبط بالماء، فبمجرد وصولنا ألزمونا بالخضوع لواحدة من عمليات «التبلور» هذه بحجة تفادي بكتيريا ما، ومنذ ذلك الحين لم أعد الشخص الذي عهدته، بل وفي كل مرة دخلت فيها أسفل الماء، خرجت أكثر سعادة وأقل قلقًا.

في تلك الليلة ذاتها، قررت الإعراض عن الاستحمام.

لأنه ما من رغبة لدي في أن يعلم الجميع بخصوص قراري بالامتناع عن الاستحمام، قررت بعد دراسة متأنية عدم تغيير ضبط المنبه -الذي لم أكن أحتاجه في الأساس- إذ كان يكفيني التركيز بشدة قبل النوم لأستيقظ قبلها بنصف ساعة. حينما كنت أرعى الأرض وأصطاد ولدي حياة حقيقية، لم ألجأ قط للمنبه بل ولم أكن حتى في حاجة للشروق أو لصياح الديك لأنهض من نومي، فوحده قراري بالاستيقاظ في موعد ما كفاني. لم أتحمم أيضًا بصورة يومية قبل وأثناء الحرب، وقطعًا ليس مرتين أو ثلاثًا يوميًا كما يحدث هنا -إذ كان الحمام واجبًا بعد تنس الطاولة- وحينئذ لم يحدث شيء لي قط، وهذا لأن الماء -سواء جاء من أمطار قد جمعناها في البئر أو اشتريناه من شاحنات «صاحبي الماء»- كان مختلفًا عن الموجود هنا؛ لم يُبلورك من الخارج والداخل حتى أحشائك، أو يسلبك رائحتك أو يُغير من شخصيتك.

لقد نجحت حيلتي العقلية كما عهدتها دائمًا، وتمكنت من دخول الحمام دون أن يراني أحد وقبل أن يدخل جاري ككل صباح دورة المياه المجاورة. دلكت نفسي جيدًا بالدهانات والفازلين بينما تخر المياه متجنبًا البلل، ثم ارتديت ملابسي وجلست منتظرًا استيقاظهم لتناول الإفطار. اندهشوا من رؤيتي مستيقظًا، لكنه لم يكن أمرًا جللًا فأنا في النهاية لم أقتل أحدًا، ومن حق كل شخص الاستيقاظ مبكرًا كما يحلو له، وأفترض أنهم لم يولوا الأمر أهمية كبيرة.

في العمل، تعقدت الأمور، إذ حاولت ألا أمر على الحمامات المشتركة عقب انتهاء الوردية، لكن المشرف اعترض طريقي. قلت له إنني لست في خير حال وربما مريض، فرد بأنه سيصحبني للطبيب بمجرد استحمامي.

قلت له إنني أفضل الذهاب للمنزل ومعرفة ما يحدث لي، فقال إنه اقتراح جيد جدًا، ويمكنني الذهاب للمنزل بعد الاستحمام، فأخبرته أنني أفضل الاستحمام لدى وصولي للمنزل ولو ليوم واحد، فقال لي إنه اقتراح ممتاز وبمجرد استحمامي يمكنني الذهاب للاستحمام في المنزل، ولأن هذه المحادثة لم يكن لها مغزى، تحممت.

بينما أفعلها، راقبني المشرف عبر الحوائط الزجاجية.

نمت هذه الليلة بشكل رائع، دون أي ملمح للقلق أو التفكير في ابنيّ أو أي شيء آخر. رغم هذا، عاودت الكرّة في اليوم التالي. سبق وقلت إن الهروب من الاستحمام في المنزل لم يكن صعبًا، لذا فقد انصبَّ كل تركيزي على إيجاد طريقة ما لتجنبه في العمل. إن الفكرة الوحيدة التي خطرت لي هي وضع طبقة كثيفة من الدهان فوق جسدي العاري لكيلا تخترق المياه مسامه بسهولة وتفعل ما تفعله بي. صففت جرار الفضلات خاصتي بعد انتهاء الوردية وتوجهت كأنه ما من شيء يحدث للاستحمام.

لكيلا أوقظ شكوكًا لدى المشرف، حاولت أن أقضي أقل وقت ممكن تحت الماء لكن مع التظاهر بأنني أبلل نفسي بصورة أكبر مما أفعله حقًا، تاركًا رأسي في الخارج فيما أتحدث مع زملائي لإخفاء نواياي الحقيقية الشريرة بأفضل طريقة لدي. لم أشرب بالطبع أي مياه جارية طوال اليوم، إذ إن التوقف عن الاستحمام لم يكن لينفعني بشيء لو تركت نفسي أتبلور من الداخل، ولهذا استسلمت أخيرًا أمام جعتي الأولى، لدى وصولي للحانة ميتًا من العطش، وبالمثل من الخوف من فرضية أن أضل طريقي نوعًا ما بعد تلك الثانية. يفترض أن الجعة مصنوعة من المياه نفسها، إلا أنه كان عليّ أن أشرب شيئًا ما إن كنت لا أرغب في الموت، وما من شيء أفضل لأشربه من الجعة الباردة.

رغم المياه التي تجرعتها عبر الجعتين الباردتين -ربما الثلاث أو الأربع- إلا أنني تحققت ليلًا من النتائج الأولى لخطتي الشيطانية، فعوضًا عن نومي بسعادة متكاملة الأركان، نمت نصف سعيد وتذكرت ابنيّ وافتقدتهما نوعًا ما. سعدت بأنني لم أكن سعيدًا جدًا، وفكرت في أنني لو كررت العملية يوميًا ربما سأتمكن في النهاية من التوقف عن الشعور بالسعادة، بل وفي أفضل الأحوال ربما الغضب بصورة عارمة. لقد نمت معانقًا لحنقي وإن كنت في الحقيقة لم أستبعد فرضية أنني بدأت أغدو مجنونًا.

*****

في اليوم التالي، دخلت في روتيني الجديد كما الصمولة في برغيها: دهان، نصف استحمام والكثير من الجعة. لا أثر في الحانة لشرطي المنطقة. كانت ليلة أفضل من تلك السابقة على أي حال، فأثناء العشاء راودتني رغبة لخنق المُوجه الشاب. لم تكن رغبة يصعب كبحها، فما زال الأمر مبكرًا على هذا، لكن لنقل إن الفكرة دارت في رأسي.

قبل النوم، واست ابتسامة خوليو كل مصائبي. مرحبًا بالكوابيس المتوحشة، أسفل قناع عينيّ؛ وهكذا دواليك طوال الأسبوع حتى جاء يوم الجمعة. قررت حينها -بل خاطرت- بناء على رغبتي ألا أذهب للعمل. هي أول مرة أفعلها دون الإمساك بإذن مُوقع في يدي. ظننت أنهم سيلقون القبض عليّ في الشارع، أنهم سيتصلون بها، أو سيخرجون بحثًا عني، إلا أنني اندهشت من عدم حدوث شيء. لقد توقفت أمام مصنع إعادة تدوير وتقطير الفضلات الجسدية ثم اجتزته ومضيت في طريقي بعد بضع ثوان من الشك. أدركت بينما أمضي، أنني لم أسر قط في المدينة الشفافة دون وجهة محددة، وخلصت أيضًا إلى أنني لم أعرف المدينة. بالطبع كنت أعرف قطاعي: المصنع، الحانة، المركز الرياضي، البنايات المتطابقة والشفافة التي تحيط بكل واحد من أماكني المعتادة، وكذا الأماكن التي كانت تختارها هي وعشيقها لتزجية أوقات فراغنا القليلة؛ سينما القطاع -تلك التي ما من شيء لديها لتعرضه سوى الأفلام الموسيقية القديمة من حقبة ما قبل الحرب- حديقة القطاع، مكتبة القطاع العامة. أنا لم أغامر قط بالخروج من قطاعي وفي السنوات التي قضيتها هناك في الداخل لم يخطر لي مُطلقًا

أن أتمشى بهدف رؤية كل شيء، أو أن أسير حتى الحد الأقصى لهذه المدينة الزجاجية العجيبة؛ هذا إن كان بالفعل موجودًا، لهذا عزمت في ذلك الصباح -الذي كان صباحًا كأي صباح عند بقية الخلق ومميزًا عندي بناء على قراري- على خوض هذه المغامرة دون أن أتأنى كثيرًا في دراستها.

أفترض أن ثمة صلة بين مياه الاستحمام وتلك المسألة أيضًا، فمبجرد أن تشعر بأنك قد تبلورت جيدًا، تنمحي لديك الرغبة في فعل الأشياء دون مبرر؛ أقصد النزوات.. المهم أنني لم أكن قادرًا على تذكر متى كانت آخر مرة خطر لي القيام بشيء بناء على رغبتي باستثناء غزواتي في الحانة، وإن كنت أخشى أن هذا ليس شيئًا قد يتباهى به المرء؛ فالرجال هنا وفي أي مكان في العالم لديهم عادة البحث عن العزاء في الجعة مع انتهاء كل وردية عمل وهذا لا يجعل منهم تحديدًا رجالًا أحرارًا. باختصار.. أخذت جولة واسعة عبر المدينة في ذلك الصباح الجميل والعادي دون تفسير ما ليبرر سلوكي وشعرت كأنني ألف دفة سفينة في منتصف رحلة طويلة، متجاهلًا الطريق المحدد.

يا لها من مدينة كبيرة! وأي لمعان هذا! وأي تطابق هذا! وأي ملل هذا! لقد ناقضت نزهتي تطلعاتي بصورة هائلة؛ فكل شيء مكرر: قطاعًا تلو الآخر، شارعًا تلو الآخر، مخزنًا تلو الآخر، حانة تلو الأخرى، سينما تلو الأخرى؛ وكلها تبث تلك الأفلام الموسيقية العتيقة التي شاهدتها مائة مرة. أيًا كان الطريق الذي ستأخذه، فستصل إلى أحد حدودها لترى بقية العالم عبر جدران القبة الشفافة؛ قريب لكنه مستحيل، وهكذا قد يظل المرء يسير لساعات دون اكتشاف شيء مختلف، لا في المدينة ذاتها أو في حدودها. ذرعت المدينة جيئة وذهابًا دون أن أرى شيئًا يُدهشني حتى عثرت بالصدفة -نظرًا لصعوبة أن يحدد المرء وجهته بين القطاعات المتكررة- على البوابة

الرئيسية؛ تلك التي دخلنا منها بعدما تركنا ما كان لنا. شاهدت بجوارها معسكر الاستقبال تمامًا كما تذكرته، وعبر الخيمة الشفافة الضخمة رأيت تعساء آخرين يبدؤون حياتهم كما سبق وفعلنا منذ فترة في هذا العالم الجديد دون أدنى شك فيما ينتظرهم، سعداء بأنهم على قيد الحياة، وحزانى لأنهم قد ابتعدوا جدًّا عن منازلهم. رأيت أيضًا مسؤولي المعسكر؛ في قمة الانضباط والبرود كما عهدتهم، وقتيلين يتدليان عند سارية بجوار نقطة المراقبة. قتيلان لم أعرفهما. شخصان آخران من كثيرين لم تطأ أقدامهم الأرض الواقعة أسفل القبة الزجاجية، وقد أُدينا بلا شك جراء جرائمهما خلال الحرب، جراء خيانتهما، جراء تعلقهما بأرضهما القديمة أو ربما شكوكهما تجاه هذه الحياة الشفافة. لم أقدر سوى على الاقتراب وحينما فعلتها، ظهر أمامي -كأنه ينتظرني- صديقي القديم، شرطي المنطقة السابق.

عناق قوي في البداية بالطبع وكيف أتيت إلى هنا وكل ثرثرة الصداقة الزائفة حتى وإن كنت في تلك الفترة -ولماذا قد أنكر!- سجينًا في النهاية لأعمق أنواع الشك، لكن العمل الذي قمت به كان شاقًا، وربما لهذا سمحت لنفسي بقول الحقيقية.

حينما سألني إلى أين أمضي قلت له بحثًا عن ابنيّ، ولما قال لي إنهما ليسا هنا أجبته بأنني لا أصدقه، وعندما استدعى الحراس قلت له إن عليهم قتلي إن أرادوا إيقافي، لكنني توقفت حينما رفعوا مقابض أسلحتهم في النهاية. إن المرء قد يضطر أحيانًا لقول هذه الأمور: «ستضطرون لقتلي إن وددتم إيقافي» دون أن يفكر وفقط ليتشجع، لكنه حينما يفكر فيما قاله، يكون الوقت قد تأخر بالفعل.

استسلم! قالها لي هؤلاء الرجال بصوت واحد، وعليّ الاعتراف بأن الشجاعة قد غابت عني حينما رأيت كل هذه المقابض مرفوعة،

فاستسلمت. ركعت وخفضت ذراعيّ وانقضوا حينئذ عليّ. كفت ضربتان فقط لإسقاطي تمامًا على الأرض، إذ كنت راكعًا في الأساس. ضربتان انغرستا في ضلوعي كأنهما من سهام مشتعلة، فما من دهان قد يحميك من الضربات. دعوت بسرعة بينما أتلعثم بقليل مما تذكرته من إحدى صلوات طفولتي وسلمت بموتي. فكرت: أنا ميت! لكنني أدركت حينما وجدت نفسي أفكر وأفكر أنني لم أكن ميتًا على الإطلاق، بل ألفظ أنفاسي؛ أو هكذا قد بدا الأمر لي. أتذكر أن شرطي المنطقة السابق -برحمته التي عهدتها- حاول تشجيعي بينما ألفظ ما اعتقدت أنه آخر أنفاسي وذلك بإعادة إلقاء نكتة الحصان الذي تبين كونه محاميًا وينام مع زوجة رجل مسكين، إلا أنني أغشي عليّ قبل نهايتها. لم أسقط كما أتخيل أن الموتى يسقطون، لأنه داخل رأسي ظلت تدور صور وأغنيات ومشاهد سبق وعرفتها وأنواع عدة من حيوانات بألف لون كما رأيتها دومًا في أطلس خوليو. لا أعرف إن كان الموتى يحلمون، لكن لا أظن هذا، وهكذا وأنا في حلمي -بفضل حلمي- بت متيقنًا من أنني لست ميتًا.

*****

يقولون إنني نمت لشهرين بعد الجلبة التي أثرتها.

هو أمر ممكن. لا أعرف، إذ يصعب كثيرًا تحديد الوقت الذي يمر حينما ينام المرء، إلا أنه لم يبد لي بهذا الطول. أنا لا أتذكر سوى حلم. هذا صحيح. حلم طويل جدًا.

في حلمي كنت أدفن بندقيتيّ وأحدد مكانهما بحذر بواسطة حجر وبعدها أنثر بنزين الصفيحتين مع الصغير خوليو في منزلنا القديم. رأيناه يتأجج نارًا حتى أساساته الأسمنتية ثم اقتادونا في حافلة. هاجمت طائرة مقاتلة الموكب ودمرت تلك الموجودة خلفنا. قُتل كل من فيها أو هكذا ظننا لأننا لم نتجرأ على النظر وراءنا، ثم تعطلت حافلتنا ولجأنا إلى فندق مع «صاحبي الماء». هجرانا وسرقا الزمزمية، وبعدها وصلنا في النهاية للمدينة الزجاجية. ظلت الأمور كما هي بصورة بدت أبدية ودون تغيير -كما سبق وحكيت- حتى ضربني الحراس بعصيهم بجوار معسكر الاستقبال حيث ذهبت بحسن نية للسؤال عن ابنيّ. ظننت أنني قد مت، لكنني لم أمت؛ وبينما أنا في غيبوبة أو بين أحلامي حكيت كل هذه القصة. بمعنى آخر، أنه في حلمي -في هذا الحلم- لم يحدث شيء سوى أنني قصصت ما حدث بالفعل، لكن.. لمن؟ لخوليو. الصغير خوليو الذي بات رجلًا تقريبًا ويجلس بجواري وينصت لي دون أن ينبس ببنت شفة، إلا أن عينيه قالتا إنه يفهم كل شيء.

حينما استيقظت كانت غرفة المستشفى خاوية، إلا من بعض الزهور

في جرّة زجاجية بجوار الفراش يضيئها نور الظهيرة. ظننت للحظة أن كل ما حدث كان كابوسًا أحكي فيه كابوسي حتى اقتربت من الزهور وأدركت أن ما من رائحة تفوح منها؛ حتى تحققت من أن النور هو نفس النور الأصفر الدائم للمدينة الزجاجية؛ حتى رأيت الغرف المجاورة عبر الحوائط الشفافة وتلك الموجودة في الأسفل عبر الأرضية الشفافة، وتلك العلوية عبر السقف الشفاف. حركت يدي نحو الضمادات التي غطت ضلوعي -المكسورة بالطبع- وشعرت بألم الضربات. كان هذا حقيقيًا على الأقل. يا أولاد الـ...! لقد ضربوني بكل هذه الوحشية رغم أنني قد استسلمت بالفعل. من قد يخطر له هذا! وددت فقط أن أعرف شيئًا عن ابنيّ وبالمثل -كما أفترض- شيئًا عن هذه المدينة الملعونة. لم أطلب القمر!

لم أتحقق من أي شيء بخصوص مصير ابنيّ، لكن تجلت لي الكيفية التي يتعامل بها هؤلاء القوم مع مشكلاتهم. لقد تم تحذيري. المسألة واحدة لا تتغير: حسن معاملة على طول الخط، حتى يقرر أحدهم أن يفعل شيئًا بنفسه فتظهر المشكلات. هذا المكان جحيم. رغم ذلك، يبدو أنه ما من أحد يدرك هذه الكينونة. لماذا أنا وحدي بهذه الصورة؟ هل أنا مريض ما قد نفد صبره ومن شدة تعلقه بأشياء امتلكها فقد قدرته على نسيانها؟ لماذا تخنقني رؤية العالم كله من حولي؟ لماذا لا أتوقف عن رؤيتهم جميعًا، حتى في منزلي وفي غرفة المستشفى هذه؟ لماذا يُغضِبني حضورهم عبر الزجاج؟ لماذا لا أطيق انعدام العتمة وأنه ما من مكان للاختباء؟ هل أنا خائن ما للقضية العامة؟ وإذا كنت خائنًا، لماذا لم ينهوا الأمر ويعلقوني بالمقلوب كـ«صاحبي الماء»؟ لم أصابوني ولم يقتلوني؟ وبينما أطرح على نفسي هذه التساؤلات، أدركت أنني أبحث عن جواب آخر؛ فكيف يتحمل الآخرون هذه المسألة؟ هل يكفي أن يقدموا لك طعامك فوق طبق لتتحمل كل

شيء؟ صحيح أنني لم أر أحدًا هنا يعاني من الجوع، وأن ثمة طبيبًا مستعدًا دائمًا لعلاج كل شخص من أمراضه، وأنه ما من مديرين أو فروضات أو قيادة، وبسبب الماء -أو أيًا كان- يشعر المرء أنه محمي وسعيد حتى رغمًا عنه، لكن.. هل هذا هو ما يكفي المرء فقط لكي يعيش؟ لماذا افتقدت دماء الحيوانات المصروعة بطلقاتي في الغابة؟ لماذا بحثت بنفسي دون أن أدرك عن هذه العقوبة؟ ولِمَ لم أتوقف حتى وجدتها؟ لماذا ألمس الآن -بحماس من يداعب كنزًا- سطح جروحي القابعة أسفل الضمادات؟ أي نوع من المجانين أنا لدرجة أنني حينما أفكر فيهم -في كل من حولي- لا أشعر إلا بأعمق درجات الازدراء؟ وكيف لي ألا أزدري نفسي بالطريقة ذاتها؟ من أين يأتي حبي الغريب لنفسي، وأنا لست مختلفًا عن بقية شركائي المواطنين السخفاء؟

إن أيامي السالفة أيضًا لم تكن شيئًا جللًا، فلم أعش أفضل حياة، لكن حينها فلا حتى الحرب أو الخوف نفسه قد سمم روحي مثل هذه الرفاهية الدائمة. لقد أحببتها هي وقتها دون حاجة للتفكير فيها، أما الآن -بل ومنذ وصولنا إلى هنا- فأنا على النقيض وعلى أرض الواقع أعتبرها عدوًّا، أو شخصًا غريبًا. لا تتعلق المسألة بأنني أفكر فيها بصورة مختلفة، بل إنها أمامي غدت مختلفة. إن كنت عاجزًا عن تحميلها الذنب، فهذا لأنني لا أعلم حقًا إن كان يجب عليّ الثقة في الحقيقة التي أراها بأم عينيّ أم في تلك الحقيقة الموجودة بلا شك على الجانب الآخر؛ وهذا لأن عينيّ من كثرة ما رأت من أشياء دون تعجب لم تعودا تثقان في شيء. لا شيء فيها قد يبرر خيانتي أو الخيانة التي -بلا شك- أرتكبها بسماحي لها بالابتعاد دون إبداء مقاومة، دون رقابة، دون منع، دون رفض.

أيضًا، لم يكن عملي في الأراضي من طلوع الشمس لمغربها يثير

اشمئزازي كذلك الحالي؛ وهو لم يكن مختلفًا للغاية. مجرد أمور لتقوم بها هنا وهناك، والأهالي.. أهالي القرية الذين لم تجمعني بهم أية مودة، فلم أشعر ناحيتهم بنفور مثل ذلك الذي أشعر به ضد أهالي هذه المدينة؛ ولم أفقد ثقتي في المياه أو حتى مرّت في رأسي فرضية أنني أتعفن من الداخل، بل ودفعت مالًا لشرائها حينما قلّت الأمطار دون شكوى من سعرها. لقد دفعت مقابل كل شيء هكذا؛ بصورة تتخطى سعره، دون أي احتجاج، وتقبلت سقوط القنابل وشبح الموت يخيم فوق عائلتي دون أن أفكر ولو للحظة في التمرد؛ بل إنني لم أتعلق قط ببلدي ولم أكن وطنيًا، ولم أكره أيضًا الدول الأعداء، لكن رويدًا رويدًا لم تعد أقدارهم تشغلني. باختصار.. لم أكن شخصًا يُذكر، هناك، في حياتي الأخرى ولم أكن لأهتم كثيرًا بالمآسي البعيدة، ولم أعتبر نفسي جزءًا من شيء سوى الغابة والأراضي ومنزلي وأهلي. وحدها هي وأوغوستو وبابلو من كانوا يهمونني حقًّا حتى جاء ذلك الطفل سائرًا وحده عبر الغابة وتسلل إلى دائرة محبتي ومشاغلي الضئيلة.

وهنا على النقيض، رغم كوني جزءًا من شيء ما من عطب فيه؛ بل شيء يسعى للتأكد من رفاهيتي بل وربما انخراطي، إلا أنني أشعر بنفسي أنأى عن المصلحة المشتركة بصورة لا حل لها. أي شرور تختبئ في روح من لا يعترف بنفسه كمجرد فرد بين نظرائه؟ يصعب تفهم لمَ غيرّني هذا المكان بهذه الصورة. يصعب إلقاء ذنب كُل عِللي على المدينة الشفافة.

إن الإنسان يحق له أن يرتحل من مكان لآخر دون فقدان روحه، وأنا لم أعد أعرف إذا كان هذا الذي صرته الآن –ذلك الذي تُسممه السعادة المحيطة به دومًا– هو ثمرة الانتقال، أم أنني كنت دومًا هكذا ولم أدرك طبيعتي هذه سوى هنا. ربما أستحق كل ما يحدث لي ولهذا أستمتع بجروحي أكثر من الصحة التي وهبوها لي. ربما أنا من جلبت الشر معي وهؤلاء القوم

أبرياء تمامًا. يصعب عليّ تصديق هذا، لكنه ممكن، إذ إنني لم أثق في من هم سواي منذ طفولتي، لم يبد لي قط أن الحياة قد تجود بما لديها بهذه الصورة لأتشاركها مع آخرين؛ معها هي وحدها استمتعت بنوع من الحميمية؛ ما هو طبيعي بين رجل وامرأة تزوجا أمام الرب، ومعًا رعينا أراضينا وابنينا، إلا أنني لم أفتح لها قلبي؛ ولم كان يجب أن أفعلها؟ لم يكن لدي علم بأن شيئًا ما داخله. لم أخف عنها بالمثل شيئًا جمًّا، إذ إنني لم أحتفظ بأسرار. لقد أحب كل منا الآخر كما تحب الناس بعضها، دون أن نولي أهمية كبرى لشيء حتى حلت الحرب، بل وربما أننا أحببنا بعضنا بالطبع أكثر أثناء الحرب -أو ربما هذا هو ما فهمته- ففي الخارج كانت هناك قنابل وتهديدات وشعرنا بالخوف نفسه من ألا نرى ابنينا، وبعدها وسط هذا السلام الغريب في المدينة الشفافة، بدأ حب كل منا للآخر يضمحل بالتدريج. ربما حدث هذا لأنهم لم يتركوا أيًّا منا يشتم رائحة الآخر، لكن لأنني أظن أننا شيء ما أكثر من كوننا حيوانات -وأتمنى أن أكون محقًّا- فلا أعتقد أن هذا هو السبب. باختصار ولأتحلى بالصدق، لم أعِ حينها أنني أكثر أو أقل مما أنا عليه الآن؛ لم أكن شيئًا آخر في أي من حيواتي السابقة، سواء كطفل أو كعامل باليومية أو رئيس للعمال أو مالك أو حبيب ولا أرى نفسي شديد الاختلاف لأتخوف وسط حياتي الجديدة هذه كشخص منفي أو كسجين أو أيًّا كانت كينونتي؛ وإن كان هذا هو كل ما لدي الآن، الجراح الناجمة عن ضربات ضلوعي وبعض الذكريات، فأعتقد أن هذا هو ما استحققته، وأنني في الواقع لم يكن لدي ما هو أكثر، ولهذا، لأي سبب قد أشكو؟ لن أكون أنا تحديدًا من يرفع صراخه للسماء.

كنت أفكر في هذا؛ في قبول الحكم الذي فرضته على نفسي دون إدانة لأحد -وبالتالي مسامحة هؤلاء القوم الطيبين على معاملتهم لي- عندما

دخل خوليو وأخذ مَقعدًا من الزجاج وجلس بجواري وتفاجأت إذ بدأ يتحدث.

-كيف حالك يا أبي؟

قبل أن أرد، لم أدرك فقط أن هذه أول كلمات أسمع خوليو يقولها، بل أول صوت أسمعه من خارج رأسي منذ فترة بعيدة، وأجبته دون أن أعرف إن كنت صادقًا:

- بخير.

- خذ المسألة بهدوء. البعض يقبلها بصورة أسوأ من البقية.

- يقبل.. ماذا؟

- التأقلم. لهذا جلبونا إلى هنا، لكي نبدأ في قبول فكرة التأقلم، إلا أن هناك من يعجزون.

- منذ متى وأنت تتكلم؟

- منذ جئت إلى هنا. بعد الحادث، لم أجد مفرًا من الحديث. كان على أحدهم أن يرعى العائلة، في ظل غياب حضرتك عن المنزل.

- وهذا الرجل؟ مُوجِّهك؟

- إنه مجرد أحمق.

- كنت أعرف! بالمناسبة لا أعرف ما الذي حكوه لك، إلا أنها لم تكن حادثة. لقد ضربوني.

- أعرف، لكنهم يسمونها هكذا.

- هم؟ من؟

- هم الكل، فهنا لا يوجد شخص مختلف أو أفضل أو حتى قائد. ننظم كل الأمور فيما بيننا، وما من أحد أيضًا ليأمرنا بشيء، نحن نأمر فيما بيننا.

- أنا لم آمر بشيء قط، لم أغير شيئًا، لم أقل شيئًا جللًا..

- لا أحد يفعل كل هذا. هذه هي الخدعة، فهكذا لا يوجد أحد لإلقاء اللوم عليه. ما من سلطة في هذه المدينة، ما من شكوى لتقديمها أو أحد لتُوجه إليه. ما من شيء لترجوه أو لتشرحه، أو أحد لترجو منه أو تشرح له..

- والحكومة المؤقتة؟

- نحن الحكومة المؤقتة. كل من يرون عبر الحوائط. كل هؤلاء القوم الذين يذهبون للتصويت في الاجتماعات النقابية. الكل وكل واحد منا.

- كانوا على حق في المدرسة. أنت بالفعل ذكي.

- شكرًا يا أبي.

- لقد حلمت بك. حلمت أنك كنت جالسًا هنا وأنني حكيت لك قصة.

- لقد حكيتها لي.

- إذًا.. لم أكن أحلم.

- لا، بل كنت تحلم. كنت تتحدث في أحلامك فيما أنصت لك.

- هل سمعني أحد غيرك بينما أهذي؟

- لا. أنا وحدي.

- ومع أي جانب أنت؟

- مع الجانب نفسه الذي كنت معه دوما: جانبنَا.

- وأي جانب هو هذا؟

- جانب من سيخرجون من هنا ويعودون للدائرة القديمة ويعتلون الجبل ويصلون للغابة لإخراج البندقيتين من مدفنهما. جانب من لم يستسلموا بعد. الآن احصل على بعض الراحة. أنا في حاجة لقوتك. سنرحل.

- وهي؟

- هي ستمكث. هي تحب كل هذا. أمي تظن أنك قد أخطأت، أنك قد انهرت، أنك لا ترغب في المضي قدمًا.

- لا أحملها أي ذنب.

- لقد اتخذت قرارها وهي حرة. يجب علينا أن نتخذ قرارنا.

- لقد أخذت قراري منذ فترة طويلة وإن كنت بعدها قد نسيت، إلا أنني الآن أتذكر فجأة وبوضوح. متى بحق الشيطان سنخرج من هنا؟

- غدًا.

- ممتاز. كيف؟

- في جرارك الخاص بالخراء يا أبي. لقد سرقته من مرأب المصنع وبات مخفيًا بين الأعشاب في الجانب الآخر من المدينة الشفافة.

- ولم يرك أحدهم؟

- ما من أحد هنا يرى شيئًا.

- لقد رأوني أنا وضربوني.

- أنت ذهبت نحو الجبهة يا أبي، ولم يكن ثمة حل أمامهم سوى هذا. الذهاب متواريًا هو الحل.

- لقد فهمت.. الذهاب متواريًا.. شيء آخر؛ جرار الخراء الصغير هذا الذي كنت أقوده ليس سريعًا للغاية وأظن أنك قد أدركت هذا بالفعل. هل تعتقد أننا ستتمكن من الهرب به؟ ربما إن فككنا العربات الصغيرة المليئة بالخراء..

- لا.. الخراء شيء أساسي.

- لأي سبب؟

- للإلهاء. لقد جهزت كل شيء. لا تقلق. انعم بالراحة فقط. سآتي لأخذك في الغد.

- الأمر يبدو سهلًا أكثر من اللازم. لن ينتهي على خير.

- المسألة أسهل مما تظن يا أبي وستنتهي على خير. لا أحد يرغب في الرحيل عن هنا في الواقع لدرجة أن الرحيل ليس ممنوعًا، لهذا فكل الأمور مُراقبة بصورة سيئة للغاية.

- إن لم يكن ممنوعًا، فلماذا لا نرحل عبر الباب وبطريقة جيدة؟

- تحسبًا.

- آها..

وبعدها صَمَتُّ. كان جليًا أن الولد أذكى مني بكثير ولم يكن ثمة معنى لتشكيكي في أفكاره أو محاولة تلوينها بتلك التي تخصني.

قبلني خوليو في جبهتي وغادر. رأيته يرحل مطمئنًا وواثقًا في نفسه. رجل بالتمام والكمال. شاهدته يغادر عبر الحوائط الشفافة، كما سبق ورأيت ابنيّ الحقيقيين عبر الغابة وهما في طريقهما نحو الحرب. لم يكن ابني، إلا أنني اعتنيت به ونادانى أبي وكل شيء، وهو على أي حال كل ما بقي لي، لذا عليّ أن أعترف بأنني شعرت بفخر باتساع البحر تجاهه. عجزت عن التصالح مع النوم وسط ترقبي للفرار. أغلقت عينيّ وحاولت تذكر المكان الدقيق الذي أخفيت فيه أسلحتي ولم تخني الذاكرة كما يحدث دومًا حين تحتاجها. كان الأمر كالسير مجددًا عبر أراضينا، عادت كل شجرة في الغابة لتصبح حاضرة، بل وحتى رائحة الطحالب الرطبة والبرك الصغيرة وضجيج حيوانات ابن عرس المختبئة بين الفروع، وهناك في أحلك نقطة حيث لا تترك أشجار الصنوبر تقريبًا ضوءًا ليمر، رأيت الصخرة التي حددت بها مخبأي، وبينما عادت الغابة لتصبح ما كانت عليه في ذكرياتي، بقيت هادئًا؛ لكن ليس كما كان يحدث سابقًا، حينما عجزت عن تجنب شعوري بالهدوء. إنه هدوء مغاير. هدوء قد عهدته من قبل ولا يمثل تهديدًا.

*****

استيقظت مبكرًا وإن استحالت معرفة الساعة؛ ففي هذا المكان البعيد عن تغيُّرات ضوء النهار تصعب معرفة متى حدثت الأمور أو كم ثابر أحدهم في شؤونه أو كم صبر عليها أو كم تعجلها، إذ إن مفهوم كل ما هو طارئ يتيه وسط هذا الجلاء المستمر المشؤوم.

كان المرضى الباقون نيامًا أسفل أقنعتهم حين نهضت وانتظرت مجيء خوليو. انتظرت وانتظرت دون معرفة كم من وقت انتظرته. دخلت الممرضات وخرجن مع الطعام، وكذا طبيبان قدما لي شروحات زائدة عن الحد حول حالتي الحرجة التي لم أفهمها على الإطلاق. لم أولِ المسألة اهتمامًا يذكر، بل إنني حتى لا أعرف إن كان يمكن إطلاق مُسمى «حالة حرجة» على الضرب المبرح الذي تعرضت له، لكن أنا بالطبع لست طبيبًا. أعتقد أن أحدهم قال إنني أصبت بالجنون وإن حوائط المستشفى في الواقع من الأسمنت وإن المدينة ليست من الزجاج، بل وإن كل الأشياء ما زالت تحتفظ برائحتها وبالأخص أنا، لأنني أرفض الاستحمام. قالوا لي أيضًا إن خوليو لا يتحدث وإنه ليس مميزًا بل متأخرًا عقليًا ولهذا أرسلوه لهذه المدرسة وإن الأستاذ الذي يعيش في منزلي يرعاه لأنهم اعتبروا أنني لم أعد قادرًا على الاعتناء بأحد، وإن ابنيّ الآخرين -الحقيقيين- قد فُقدا وسط المعارك واعتبروهما في عداد الأموات. لقد قالا لي كل هذه الأمور بجدية شديدة دون أن يهتزا لثانية، وهكذا أدركت أنهما يكذبان. لم أشعر بالإهانة، خاصة أنني أعرف أن الأمر لم يكن صحيحًا، بل ولم تشغلني المسألة أيضًا. لست شخصًا قد يهتم بكلام الغرباء، مهما تنامت معرفتهم. حينما يدخل

هؤلاء الغرباء أضع نفسي في الفراش وحينما يخرجون أقف وأنتظر.

انتظرت؛ واقفًا هناك في الغرفة الزجاجية طيلة أيام، محاطًا بمرضى يرقدون فوق أسرتهم، حتى يأتي الصغير خوليو -الذي بات رجلًا بالتمام والكمال- من أجلي، لكنه لم يأت.

لا حس ولا خبر ولا أي شيء.

افترضت أنهم قد أسروه. ربما لم يكن ذكيًا للغاية في نهاية المطاف. ربما يكون قد خدعني. من يدري! وإن كنت لا أظنه من هذا النوع من الفتية. فضلت التفكير في أن هؤلاء القوم، الذين يقررون أي شيء بناء على هواهم، قد قرروا القضاء عليه، أو أنه ربما أكثر ذكاء مما أظن ورحل بمفرده دون انتظاري. لم أكن لأؤنبه على هذا أبدًا، فهو شاب وقوي وأمامه حياة كاملة تنتظره، فلم عليه أن يحمل ثقل رجل عجوز فوق ظهره؟ لقد سعدت تقريبًا بفرضية أن يكون قد هجرني، فقليل من العون كنت لأقدمه له في مغامرته. تخيلته يعتلي جراري بحمولة الخراء خلفه، بينما يتقدم ببطء وثبات نحو حياة أفضل، لكن الشيء الوحيد الذي لن يعثر خوليو عليه أبدًا، مهما كان ذكيًا، هو بندقيتاي، لأنني من دفنهما، وأنا وحدي القادر على إيجادهما.

*****

لم يأت خوليو ليأخذني وربما كان هذا هو الأنسب له والأكثر عقلانية.

لقد أسفت على عدم رؤيتي له مجددًا. هذا صحيح، إلا أنني بقيت سعيدًا ومقتنعًا بأنه لن يأتي بحثًا عني. كيف لي أن أطلب من فتى شديد التميز مثله وأمامه الكثير ليكتشفه بنفسه في أرض الرب أن يجر معه أباه العجوز -بل شبه أبيه- والذي لن يتعدى كونه مجرد حمل ثقيل أو عائق بل وعناء هائل؟

إن كان الفتى المسكين يرغب في إنقاذ نفسه، فما من حل لديه سوى هجري في منتصف الطريق.

واصلت الانتظار بينما أقف، فقط تحسبًا..

ذات يوم جاءت هي في صحبة محامٍ ومعها أوراق ما للطلاق ومستندات أخرى أكثر تعقيدًا لتحصل على حضانة خوليو. بمجرد رؤيتي لهما قادمين، رقدت على الفراش ورسمت على وجهي أفضل سيماء مرض لدي. قلت لهما إن الطلاق لا يعنيني كثيرًا، لكن عليهما نسيان خوليو. أخبرتهما بأن خوليو قد رحل دون أن ينظر خلفه وأنه بات خارج هذه المدينة وبعيدًا عن قوانينها الغبية بفضل ذكائه الهائل وأنهما يثيران ضحكي بهذه الأوراق المليئة بكلمات مكتوبة بأحرف صغيرة لأن الطفل الذي يسعيان وراء حضانته بات رجلًا حرًّا يُحلق بنفسه. قالا لي: لا. خوليو لا يحلق، خوليو لا يتحدث حتى، خوليو المسكين يمكث مطمئنًّا في المدرسة المميزة للمتأخرين عقليًا كما هو حاله كل يوم. لو اخترقا روحي برمح، ما كانا

ليسببا لي ضررًا أكثر من هذا الذي خلفاه، فالطفل وفقًا لترهاتهما هذه لم يكن عبقريًّا. لم أكن مستعدًّا لتصديق أي من هذا مقابل كل كنوز الدنيا، وبدا لي على أي حال أن المهم في الوقت الحالي هو التخلص منهما، فوقعت على الأوراق دون تململ ورحلا على الفور. إن الناس ترحل دومًا حينما تحصل على مرادها. هذا صحيح وبمجرد أن رحلا نهضت مجددًا.

واصلت الانتظار.

وكم انتظرت مرتديًا منامتي! لقد مر وقت طويل جدًا ورغم ذلك انتظرت قليلًا من الوقت بعدها.. تحسبًا، ثم أدركت أن تظاهري بالمرض لن يحقق لي مصيري، ولا حتى الشيطان نفسه. باختصار.. لقد انتظرت كثيرًا وضاع انتظاري هباء، وفي النهاية لم أجد مناصًا من التفكير في طريقة للهروب بمفردي دون مساعدة من أحد واثقًا في ذكائي وغريزتي ونصيبي.

سأكذب إن قلت إن فكرة الاستسلام لم تخطر لي.

*****

لم يكن الخروج من المدينة الشفافة صعبًا كما تخيلت. لم أحتج حتى إلى خطة. استجمعت فقط كل الشجاعة المتبقية لدي -كمن يجمع الفتات من على الأرض بملقاط ليصنع شيئًا أشبه بالخبز- حتى صرت جاهزًا. صباح الخير وسرت هكذا وأنا بمنامتي مع طيف شجاعتي الصغير بين ذراعي حتى باب المستشفى بين مرضى مشتتين وممرضين لا يشغلون بالهم بنصيبي، وقطعت كل الشوارع التي تفصلني عن مدخل المدينة، ثم مررت من أمام معسكر الاستقبال لأجتاز النقطة الحدودية دون أدنى معارضة. أظن أنهم حينما رأوني حاسمًا وعازمًا بهذه الملابس غير الاعتيادية قد ظنوني مجنونًا. لا أفهم الآن لم ضربوني حينما سألت عن ابنيّ، ولم تركوني على النقيض وقتها أرحل دون ممانعة. إن الأسئلة تزعجهم بكل تأكيد في المدينة الشفافة أما الفرار فلا يقلقهم. لا أعتقد حتى أنه يُمكن إطلاق مسمى الفرار على الرحيل في هدوء من مكان لا يحتجزك فيه شخص أو شيء ما بالقوة. ما حدث هو أنني سرت بكل هدوء، وانعطفت بمحاذاة القبة دون أن يضايقني الحراس، وبحثت بين الأجمات عن الجرار الذي أخبرني خوليو بأنه قد أخفاه، إلا أنه لم يكن موجودًا. لا أعرف إن كان السبب أن الصغير لم يرغب في مساعدتي أم لأنه لم يقدر، لكن ما من فارق، إذ إن رغبة نصف أبيه في الوجود داخل المدينة أو خارجها -هنا أو بعيدا- لم تكن شأنه، ولذا ليس لدي ما قد أؤنب الولد بخصوصه؛ فأي ذنب قد ارتكبه هذا الملاك الصغير! انعطفت بعدها باتجاه الطريق، وسرت في خط مستقيم حتى المرج ومن هناك نحو الجبل حتى ابتعدت كثيرًا، وواصلت السير والسير

لأبتعد بأقصى قدر ممكن حتى وصلت أخيرًا لحل منطقي. لقد حلمت بهذه المحادثة. لم يعد لدي شك. الصغير لم يتحدث، وإن تحدث ذات مرة -لو شاء الرب- فلن يكون معي.

وطأت الدائرة في ظرف ثلاثة أيام. لم تقابلني عقبات في طريقي بل يُمكن قول إن الحظ لم يتخل عني، إذ إنني عوضًا عن السير في طريق الذهاب قررت أن أسير وفقًا لحدسي، ودرت حول الجبل متجاهلًا الطريق الذي سرنا فيه أنا وهي وخوليو، فآخر ما كنت أوده هو أن ألتقي بأحد.

لم آخذ شيئًا معي. قضيت الليلة الأولى في العراء دون ماء أو طعام، وفي اليوم الثاني عثرت على مكب نفايات ضخم حصلت منه على كل ما هو ضروري لأواصل رحلتي، ولا أتحدث فقط عن الملابس، بل قطعة قماش صوفية كبيرة لأصنع بها خيمة، وبعض البطاطين وزجاجات فارغة ملأتها من مياه بركة عكرة، بل وحذاء دون أربطة لكنه بنعلين سليمين خاليين من الثقوب وبنفس مقاسي تقريبًا. حذاء جيد لجندي ميت، مثل ذلك الذي ارتداه ابناي في هذه الحرب. لم أعثر على طعام سوى العشب والثمار العنبية وثمار القطلب والعرعر، إلا أنها كانت كافية. قذرة كانت رائحة الملابس التي أرتديها، وهي سروال قصير يصل لحد الركبتين ومعطف صوفي في حالة جيدة، لكن يجب عليّ الاعتراف بأن هذا العفن أسعدني، إذ كان قد فاض بي الكيل من عدم اشتمام شيء طيلة سنوات في المدينة. شعرت بأن عرق من سكنوا سابقًا هذه الملابس كان صُحبتي، ورغم أنها ليست لي، إلا أنني تعرفت على هذه الرائحة المستعارة كأنها لقريب ما بعيد.

أمطرت في الليلة الثالثة، وتمكنت من تغيير مياه البركة العكرة التي احتفظت بها في الزجاجات بأخرى نظيفة بدا لي طعمها رائعًا. حينما استيقظت بعد هذه الليلة الأخيرة، تمكنت من رؤية الدائرة ويصعب على

من لم يُجبر قط على ترك بيته تخيل كم السعادة التي غمرتني حينما تعرفت على ما كان في وقت سابق وطني، إلا أن فهمه سيسهل جدًا على من ذاق طعم المنفى. بدأت مسيرتي مبكرًا جدًا ووصلت سريعًا للقرية أو ما يتبقى منها. لم يخرج أحد لاستقبالي لأنه ما من أحد كان هناك، ما من روح واحدة، ما من بشر أو جرذان أو كلاب. لقد تنامت العُشبة الخبيثة في الشوارع وبين أحجار المنازل المتفحمة. المتاجر، الحانة، مكتب البريد.. كلها احترقت وباتت ركامًا. الأرض منثورة بالزجاج، الكنيسة ما تزال شبه قائمة في مكانها، إلا أنها مُسودة. مغطس السباحة العمومي يفيض بالماء الراكد والعكر، النوافير صامتة، أما برج الجرس -والرب وحده يعلم السبب- فكان خاليًا من جرسه، ربما صهروه ليصنعوا طلقات مدفعية أو عملات برونزية. اجتزت القرية دون رؤية حيوانات أو حشرات أو أشباح؛ ما من شيء حي أو ميت، وتوجهت نحو الأراضي خاصتي. شاهدت بيتي المحترق حتى أُسسه الأسمنتية، الحديقة بائرة -شأنها شأن الحقل- والبستان مقفر، الإسطبلات فارغة والآبار خاوية. لم ينج أي شيء كان لنا. اشتد عزمي بعد العبور أمام ما كان منزلي، وابتعدت حتى وصلت إلى الغابة. لقد ظلت الغابة على الأقل كما كانت. بحثت عن الحجر الذي حددت به مخبأ أسلحتي، إلا أنني لم أعثر عليه، فالفيضانات والقنابل قد قلبت الأرض رأسًا على عقب، أو ربما هي ذاكرتي التي لم تعمل جيدًا، أو أن أحدهم قد أخرجها من مدفنها ولم تعد أسلحتي. ربما كنت غريرًا بظني أنني سأعثر على علامتي قبل آخرين. حفرت بيديّ هنا وهناك كحيوان القندس دون نجاح، ثم جلست لأرتاح أسفل شجرة وإذا بالليل يحل. افتقدت للحظة المدينة الزجاجية، سقفي وحوائطي الشفافة، هي والصغير خوليو، القليل الذي كان لدي هناك، إلا أنني قررت ألا أعود أبدًا إلى هناك ربما بدافع الضغينة أكثر من الحماس. لن أعود إلى هناك. لن أعود أيضًا لاشتياق محبسي. أقسمت ألا أطأ من

جديد أرض المدينة الشفافة، وألا أرى الآخرين دون قدرة على تفاديهم، وألا أسمح بأن يُحكم على الآخرين برؤيتي. قررت أيضًا أن أُحَيي بمودة فقط من كان قادرًا على الأقل على الاختباء مثلي، هذا إن جاء هذا اليوم. أقسمت أن أعيش هناك في الغابة ما يتبقى لي من حياتي وكذا الموت هناك حينما تحين ساعتي؛ وحدي أو في صحبة أحد هو أمر لم يكن قد تحدد بعد.

بحثت عن أفرع سميكة ونصبت الخيمة؛ المكان الذي سيغدو بداية من تلك اللحظة وحتى النهاية بيتي. لقد شعرت أسفل الصوف وأنا أعزل تمامًا بينما تُطوقني أعمق أنواع العتمة بضوضاء انبعاث تفاؤلي الصحي القديم، ذلك الذي طالما اشتقت إليه. تدثَّرت هذه اللحظة الغريبة التي تسبق النوم بأصوات معروفة؛ وسواء كانت مُتخيلة أو تأتي عبر الذاكرة، فما من فارق، لأنها في نهاية المطاف مألوفة وبعيدة عن التداعي والرحيل والهزيمة وقريبة من الانتصار الوحيد؛ أو على الأقل ذكرى صوتي، ذلك الصوت الذي رافقني وحدي منذ طفولتي؛ قبل كل شيء، قبل كل الباقين.

لا أعرف كم من وقت نمت ولا أتذكر ما الذي حلمت به، إلا أنني حينما استيقظت وجدت الشمس في علوها وحينما نهضت وبينما أنفض عني كسلي، هُيئ لي أنني لمحت رجلًا يأتي من بعيد، فأمسكت بعصا دون تفكير، وترقبت لأرى إن كان قادمًا في اتجاهي، وبعد برهة من الوقت تأكدت من أنه يتجه نحوي مباشرة، إلا أن هذا لم يكن أكثر أمر مقلق؛ بل أسوأ شيء أن هيئته بينما يتقدم رويدًا رويدًا أخذت تبدو مألوفة بشكل غريب، وبعد وقت طويل لم يعد لدي شك في أنه خوليو.

أفترض أنني رأيته هكذا يأتي في اليوم الأول، إلا أنه الآن بات أضخم ولا يأتي جريحًا أو أعزل بل مسلحًا، فمعه قوس مستعرض، من ذلك النوع القادرعلى قتل خنزير بري من على بعد ثلاثمائة متر وإصابته أثناء حركته،

بينما وقفت ثابتًا كوتد بلا حراك من فرط المفاجأة، وربما أيضًا من فرط السعادة.

ألقيت العصا جانبًا، فأيًّا كان ما هو قادم لم تكن ثمة نية لديّ للعراك مع خوليو، وإكرامًا للحقيقة لم أكن لأقدر عليه، مع القوس أو بدونه. هكذا جلست أنتظره كمن يقبل مصيره، أيًا كان ما يجلبه، وكلما اقترب ازداد شعوري -ولا أعرف السبب لكن أظنه الحدس- بأنه لا يجلب أنباء طيبة. حياني بيده لما بات على بعد مائتي متر وحييته بالطريقة نفسها.

وصل في النهاية إلى مكاني، ثم جلس بجواري وليس في مواجهتي دون أن يقول شيئًا أو يفلت القوس المستعرض الذي أمسكه بحسم وإصبعه فوق الزناد. لم يكن الأمر يبشر بالخير، ولما نظرت لعينيه لم تُذكرني عينا هذا الرجل بالطفل الذي وددت أن يكون لي، الذي كان يركض عبر المنزل ميتًا من الضحك، الذي أحب كثيرًا رسم الحيوانات الغريبة، الذي كان دون أدنى شك رفقتي الموثوقة الوحيدة في أيام المعاناة والشفافية في المدينة الزجاجية.

ثمة شيء أخبرني بأنه لم يأت إلى هنا لينضم إليّ، بل ليصطادني؛ ولأنه لم يفكر في مخاطبتي وجهت له الأسئلة المطلوبة، تلك الثلاثة التالية:

- هل أتيت لتُعِيدَني؟

فنفى برأسه.

- هل أتيت لتقتلني؟

فأومأ برأسه.

- ما هي تُهمتي تحديدًا؟

لم يُجب على هذا السؤال، كما هو متوقع، لهذا أعدت طرحه بأفضل صورة ممكنة لكي يجيب عليه دون أن يفتح فمه:

- لم يعد هناك أناس مثلي في العالم الذي تشيدونه، أليس كذلك؟

فحرك برأسه مجددًا؛ مجرد إيماءة بسيطة. أود أن أتخيل أنه لم يفعلها دون ملمح للأسى.

رفع بعدها القوس المستعرض بمحاذاة الفخذ، إذ إنه ما من معنى للتصويب نحوي في ظل قربي له.

في تلك اللحظة استسلمت.. قليل هو ما يمكنني قوله عن نصيب بقية من عاشوا في هذا العالم الجديد. أظن أن الأمور ستسير معهم بصورة رائعة، أما من هم مثلي؛ من ليس لديهم إيمان مثلي، فقد كنا دومًا العدو.

ثمة شيء واحد مؤكد بخصوصي: لقد هزموني.

تمنيت فقط قبل أن يغيم كل ما هو مرئي وغير مرئي وما هو شفاف وما هو مكنون أن يكون ابناي الحقيقيان في جانبه، وليس جانبي.

على المرء أن يدرك متى انقضى زمانه

وأن يتعلم الإعجاب بانتصارات أخرى.

راي لوريغا: كاتب وسيناريست إسباني من مواليد مدريد 1967. تُرجمت أعماله المتنوعة بين الرواية والقصة القصيرة إلى 16 لغة، ويعتبر من أبرز المؤلفين الإسبان حاليًا على الصعيدين المحلي والعالمي. توج في 2017 بجائزة «ألفاغوارا» العريقة عن رواية «استسلام». من أبرز أعماله الأخرى «طوكيو لم تعد تحبنا» و«الرجل الذي اخترع مانهاتن». وصفته صحيفة (ذا ديلي تيليغراف) البريطانية بأنه «صوت لجيل جديد» من المؤلفين الإسبان فيما تعتبره (سكوتلاند أون صنداي) «مؤلفًا مثقفًا تنساب قطرات موهبته في كل صفحة».

محمد الفولي: قاص ومترجم وصحفي مصري، مواليد القاهرة عام 1987، حصل على درجة الليسانس في اللغة الإسبانية وأدبها من جامعة القاهرة. يعمل حاليًا محررًا بالقسم العربي بوكالة الأنباء الإسبانية، وينصبُّ اهتمامه الأساسي على المزج بين الكتابة الرياضية والأدب.

صدر له:

- تقرير عن الرفاعية (قصص) 2019

في الترجمة:

- «الشرق يبدأ في القاهرة» للكاتب الكولومبي إكتور آباد فاسيولينسي.
- «حكاية عامل غرف: مختارات من أدب كرة القدم الأرجنتيني».
- «أغرب الحكايات في تاريخ المونديال» للكاتب الأرجنتيني لوثيانو بيرنيكي.
- «لماذا كرة القدم تُلعب 11 ضد 11» للكاتب الأرجنتيني لوثيانو بيرنيكي.
- «أخف من الهواء» للكاتب الأرجنتيني فيديريكو جانمير.
- «أشد ألم» للكاتب البيروفي سانتياغو رونكاغليولو.

RAY LORIGA

RENDICIÓN

استسلام

من نحن حقًا حينما تُغيرنا الظروف؟

تستمر الحرب لعقد كامل. ما من أحد يعرف مجرياتها، من كان المُعتدي ومن هو المعتَدى عليه. تستمر الحياة في البلدة بين الخوف من الوشاية والاشتياق لمن يقاتلون في الجبهة. وعندما تحين ساعة إخلاء المنطقة لأسباب أمنية يبدأ في شق طريقه مع زوجته والصغير خوليو؛ يد العون في إخماد ألمه الناجم عن غياب ابنيه الجنديين. يبدو أن مستقبلًا مُحصنًا ينتظرهم في المدينة الشفافة، تلك المدينة المُبهِجة بصورة غريبة والتي كل ما فيها ملكية عامة. هناك؛ تختفي الذكريات، ويختفي معها أي ملمح للخصوصية، بما فيها خصوصية الشعور بالخوف، حتى تلك اللحظة التي يستيقظ فيها الوعي ويذعن لتقبل التبعات.

«قصة كافكاوية وأورويلية عن السُلطة والتلاعب الجماعي. أُمثولة عن مجتمعاتنا المُعرّاة أمام نظرات وأحكام الجميع. ودون السقوط في فخ الوعظ الأخلاقي، عبر صوت الراوي المتواضع المتأمل الذي لا يخلو من حس الفكاهة المفاجئة، يبني المؤلف حكاية مُبهرة عن المنفى والخسارة والأبوة والمشاعر. حبكة مدهشة، كل صفحة تقودنا نحو نهاية صادمة يظل صداها يتردد داخل القارئ لفترة بعد إنهاء الكتاب».

- من قرار لجنة تحكيم جائزة «ألفاغوارا» لعام 2017.

ISBN: 978-1-988483-89-4



